منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

فاروق وادي

ديك بيروت يؤذّن في الظّهيرة

كتاب الحرب

ديك بيروت
يؤذّن في الظّهيرة

طبع في لبنان

ديك بيروت
يؤذّن في الظّهيرة
كتاب الحرب

فاروق وادي

مكتبة كل شيء

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-02-1301-2

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف بيروت: 9613223227+

editions.difaf@gmail.com

مكتبة كل شيء

e-mail: info@kul-shee.com

www.kul-shee.com

الغلاف، فوتوغراف: شهد وادي

تفَّاحةٌ للبحر. نرجسةٌ الرخام.
فراشةٌ حجريّةٌ بيروتُ. شكلُ الروح في المرآة
وَصْفُ المرأة الأولى، ورائحة الغمام
بيروتُ من تَعَبٍ ومن ذَهَبٍ وأندلس وشام
فضَّةٌ. زَبَدٌ. وصايا الأرض في ريش الحمام
وفاة سنبلة. تشرُّد نجمة بيني وبين حبيبتي بيروت
لم أسمع دمي من قبلُ ينطقُ باسم عاشقةٍ تنام على دمي ... وتنام

محمود درويش
(قصيدة بيروت)

النهارُ انتهى يا أبي
ودمي لم يزلْ ساطعًا كالظَّهيرةْ
فوق تلكَ الحَصِيرَةْ

إبراهيم نصر الله
(حرب أهليّة)

(1)

ذلك الصّهيل

إلى بيت جبليّ غابت عنه رائحة الأنثى طويلاً، جاءت الفتاة التي ترتدي الجينز. حلّت بعبقها الساحر، ورائحتها المشاغبة، برمانتيها الناهدتين اللتين تسبقانها في الممرات، وبانحناءات جسدها التي تبوح بالرغبة وتُجهر بغوايات مُعلنة ورعشات مؤجّلة.

نظرت بعينيها الناعستين إلى الأرجاء الكسولة..

كل شيء في البيت، كان يكتسحه بصرامة ذلك الغياب القاسي الطويل لرائحة الأنثى.

الجدران التي تتسلّقها وحشة مقيتة.

أكواب الشاي التي امتلأت بحثالة القهوة وأعقاب السجائر.

زجاجة النبيذ الموغلة في الرُّخص.

حموضة الرائحة المعشِّشة في المكان..

وعيون الرجال الثلاثة، المنهمكين في حوارات جادّة حول احتمالات حربٍ يلوح دخانها في أفق خانق، وقد تقع بين لحظة وأخرى!

كانوا ثلاثة،

ثلاثة أصدقاء!

وكانت هي الأنثى الوحيدة، تتحرّك بحفيف جسدٍ ثرثار، في بيت غابت عنه رائحة الأنثى طويلاً.

حلّت عليهم بخضرتها الآسرة، فاشتعل المكان بكيمياء عيونٍ تطفر منها شهوات فادحة، مُتطلِّبة، تحاول إخفاء توترٍ مُحاتل.

***

على العشاء جلس ثلاثتهم، وكانت هي رابعهم.

لم تكن تحفل بالحديث الذي يدور بينهم في أمور هيمنت عليها شؤون السياسة واحتمالات حربٍ لم يكن يعنيها إن كانت ستقع أو لا تقع.

لكنها، رغم ذلك، كانت تبدو وكأنها تصغي إلى كلّ واحد منهم باهتمام بالغ. وكل واحدٍ منهم، وإن كان يُدرك في قرارة نفسه أن حديث السياسة والحرب التي قد تقع أو لا تقع، لا يستهوي المرأة الحاضرة بكل أنوثتها المشاغبة، الملفّعة بالجينز، فإنه لم يكن قادراً على أن يمنع نفسه من توجيه الكلام إليها، وكأنها مركز الحديث واحتمالات حرب أخرى شرعت تشتعل بصمت بين الرجال الثلاثة.

والمرأة التي لا تعنيها شؤون السياسة والحرب، كانت تحرص على أن تبدو لمحدِّثها وكأنها تُصغي إليه باهتمام بالغ، وأنها توافقه دون غيره، برّفة عين سريّة، لامرئيّة للآخرين، رأيه السديد، سواء اعتقد باحتمال وقوع الحرب أو إنه كان ينفي مثل هذا الاحتمال.

لكنها، وخارج حديث السياسة الواضح، كانت تحدِّق في ذلك الغموض الشّرس المطلّ من عيون الرجل الذي يوجِّه إليها الحديث؛ غموض يشبه احتمالات حرب تقع أو لا تقع. وكان في مقدورها أن تصغي، دون عناء، إلى صهيل الرغبة الذكوريّة الطاغية في العينين، فتستشعر في داخلها رجفة الإستجابة، وتحسّ بالجمرة تشتعل في مكان خفيّ غير مُعلنٍ من جسدها.

فكّرت في نفسها:

ـ كلّ العيون متشابهة.. وفي ألقها ذات الصهيل!

***

شيء ما، غامض، شدّها إلى السرير المنزوي في الغرفة النائية، والذي كانوا يعدونه لذوي السبيل. شيء ما، لم يكن بمقدورها وصفه بالنعاس.

إنسلَّت من بينهم دون إشارة أو استئذان، وتركتهم يواصلون حواراتهم حول حرب تقع أو لا تقع، وقد لحظت بغيظ أن حرارتها لم تتأثر كثيراً بانسحابها.

وكما عادتها منذ سنوات، نضت عن نفسها ملابسها واندسّت في الفراش بكامل عريها..

وتذكُر، أنها كانت قد غفت لدقائق،

أو ساعات،

قبل أن يسبغ عليها الجسد الآخر فيضاً من حرارته الباذخة، فيمنح دفئاً غامراً تسلل دون تردُّد إلى الأرجاء المتطلبة لذلك الجسد الأنثوي المستوحش.. المتوحِّش.

اشتعلت المرأة في العتمة مع الجسد المشتعل، دون أن تطرح أسئلتها.

وفي العتمة نفسها، التي جاء منها الرّجل بحممه، إنسلّ من فراش كان قد عرف قبل لحظات كل طقوس الجنّة والجحيم، ثمّ مضى دون أن يجيب على سؤال لم يُطرح.

***

في الصباح، على مائدة الإفطار، كانت تجلس معهم، بالجينز الذي خبت من استداراته كلّ الشهوات.

كانوا ثلاثة،

ثلاثة أصدقاء..

وكانت هي رابعهم..

خطر ببالها، في تلك اللحظة، أن تطرح على نفسها السؤال.

لم تتردد طويلاً، طالما أنه سيظلّ محكوماً بالإقامة في داخلها.

طرحته في نفسها، ولنفسها:

ـ أيُّ من الثلاثة كان زائر الليل؟!

طرحت السؤال وكرّرته في داخلها، لكنها لم تجد إجابة. فكلّ العيون كانت متشابهة، مستريحة، مطفأة الشهوات.. كحربٍ شهدت نهايتها بانتصارٍ لم يُعلن.

قالت في نفسها:

- كلّ العيون متشابهة..

وكلّ العيون، غاب عنها ذلك الصهيل!؟

(2)

عند أطراف لا تلتقي

طرقَتْ بابك.

كنتَ تستلقي على السرير مستسلماً لنعاس كاذب، دون أن يفارقك اليقين بأنها "هي"، ولا أحد غيرها.

لكنك لم تفتح الباب، وبقيت مستسلماً لاسترخائك.

يُخيّل إليك أنك سمعت نشيج امرأة يتسرّب من شقوق الباب. ثمّ أصغيت إلى وقع أقدامها بعد وقت طال أو قصُر، وهي تهبط الدرجات المفضية إلى كورنيش البحر، تضرب بكعبها العالي رخاماً كئيباً مستسلماً لطرقاتٍ تتردد بانكسارٍ ومذلّة.

كان نشيجها "هي"..

وصوت خطواتها "هي"..

ثمّ إنّك نسيت الأمر بعد دقائق.

كنتَ تُفكِّر بالأخرى.

قمتَ، غسلتَ وجهك.

حلقت ذقنك.

إرتديت قميصاً نظيفاً.

نزلتَ إلى الشارع.

حدّقت في واجهات المحلات الصقيلة. لم تر سوى نفسك، وكلّ شئ كما ينبغي أن يكون.

***

ثمّ،

صعدتَ الدّرجات، درجات بيت المرأة الأخرى..

وقفتَ على الباب.

طرقتَه مرّة، ثمّ أخرى، وثالثة..

كنتَ توقن أن الأخرى في الداخل، وربما كانت في تلك اللحظة تستسلم بدورها لنعاسٍ كاذب.

عدتً تطرق الباب.. مرّة، ثمّ أخرى، وثالثة..

لم تفتح.

خُيِّل إليك أن الهواء الذي يتسرّب من شقوق الباب إلى داخل البيت كان يحمل صوت النشيج المتفجِّر في داخلك.

وعندما كنتَ تهبط الدرجات الصقيلة هناك، كانت تترامى في الفضاء الساكت وقع أقدامٍ تتردد خطواتها بانكسارٍ ومذلّة، ممتزجة بصوت نشيج!

كان نشيجك أَنت. وصوت خطواتك أنت..

هبطتَ نحو البحر الذي تنعكس على صفحته غيوم داكنة بدأت تتشكّل في السّماء وتتصارع، مثل كائنات أسطوريّة متوحِّشة تخوض حرباً مدمِّرة. وكنت ترى الزّرقة الصّافية وهي تتحوّل، شيئاً فشيئاً، إلى لون الرّماد، لتستولي بكآبتها على القلب والأفق ومدّ البصر، وتُنذر بمطر أسود، قادم لا محالة!

وقفتَ تتأمّل الموج الهارب ذعراً، والآخر القادم متكسِّراً على الصّخر؛ وترقب شمساً تُسقط أنصالها الخاطفة على المدينة، قبل أن تزداد شحوباً وتتهيّأ للأفول.

وكنت تستطيع أن ترى في ماء البحر الذي أخذ يتعكّر، سمكاً كثيراً، كثيراً، يسبح راكضاً في الاتجاه نفسه، دون أن يلتقي. فيما كانت رئتاك، تعبقان بدخان وغبار وحرائق تملأ الفضاء الشّاسع، وبرائحة بارود يتفجّر في الأعماق!

***

كانت السّاعة آنذاك تقترب..

***

وفي تلك الليلة.. إنشقّ القمر!

(3)

الديك يؤذن في الظهيرة

في ذلك المساء الرّبيعي من مساءات بيروت الدافئة، كنتُ أسير مع "سيلفيا" في شارع الحمراء. تلتف ساعدي اليمنى على كتفها، فيما تطوّق ساعدها اليسرى خاصرتي وتستريح أصابعها على جانبي.

كانت تلك الحركة إعلاناً صامتاً بأننا بتنا نسير في أوّل الطريق.

لم تتردّد أصابعي، بين فينة وأخرى، بأن تعبث برقّة في شعرها الذهبيّ الناعم القصير، ثمّ تهبط قليلاً، ودون اعتراض، لتتحسّس رقبتها البيضاء الناعمة:

ـ من بين كلّ مدن الدنيا التي عرفتها، ليس هناك أجمل من بيروت.

تقول بحرارة، ثمّ تضيف:

ـ وأجمل ما فيها منطقة رأس بيروت!

كان الربيع يختال في قلبينا ويَعِدنا، في ذلك المساء البعيد من منتصف نيسان، بحالة عشقٍ لا رادّ لها. وكنتُ، أنا الريفيّ القادم من قرية بعيدة، قريبة من رام الله، أعجب لسلوكي المُعلن مع سيلفيا. فقد نشأتُ على الحرص بأن أتكتّم أمام الآخرين على اسم الحبيبة التي يخفق لها القلب، وأتردد طويلاً قبل أن أبوح بكلمة الحبّ الأولى لفتاتي التي تبادلني نظرات حيّيّة في الحافلة المتجهة بنا إلى المدينة، حيث مدارسنا الثانويّة هناك.

كنتُ قبل سنوات قليلة أذوب خجلاً قبل أن أتجرأ على النطق بكلمة حُبّ، أو تسريب ابتسامة حريصة على أن لا تفصح عن نفسها. أمّا الآن، فها هي سيلفيا تريح يدها فوق خاصرتي اليُسرى وتردِّد:

ـ إن أجمل شئ في الدنيا، ذراع حنونة تلتف حول كتف امرأة غريبة في

مدينة أليفة.. مثل بيروت.

لم أكن قد بُحت لها بأسرار قلبي الذي ازداد وجيبه خفقاناً في ذلك اليوم، ولا هي قالت شيئاً، لكن أيدينا كانت تبوح.

عرفتُ سيلفيا قبل ثلاثة أسابيع. هي تعمل طبيبة في إحدى العيادات التابعة لتنظيم فلسطيني يساري في مخيّم تلّ الزعتر.. تتعلّم العربيّة التي تستجيب لرغبتها صاغرة، رغم تكسُّر بعض الحروف على لسانها؛ وتعدّ لأطروحة حول الواقع الصحي في مخيمات اللاجئين في لبنان. وقد جاءت إلى مركز الأبحاث الفلسطيني، حيث أعمل، علّها تعثر على مصادر مكتوبة تفيد دراستها. لم تستفد كثيراً، لكنني كنتُ أنا المستفيد الأكبر، لأن سيلفيا كسرت عزلتي وتسللت إليّ لتقتحم طوقي، وورطتني في حبّ مدينة لم أكن قد كوّنت لها مشاعر إيجابيّة حتّى تلك اللحظة.

***

شاهدتُ مع سيلفيا، مساء ذلك اليوم البعيد، فيلم "قصّة حبّ" في سينما "الدورادو". سمعتُ نحيبها في عتمة الصّالة. غرستُ أصابعي في شعرها مبيحاً لها بأن ترسو طويلاً هناك. وكنتُ أهدهد حزنها الحارق على البطلة التي خطفها الموت من حبيبها الملوّع.

عندما همستُ لها، وأنا أتنسّم عطرها في العتمة، أن البطلة لم تمت، وأننا سنراها قريباً في فيلم آخر، ضحكت وتوقفت عن البكاء.

خرجنا من عتمة الصالة إلى أضواء الشارع الذي يفوح برائحة الكعك البلجيكي الشّهي. وكانت سيلفيا تردِّد إن أجمل شيء في الدنيا هو البكاء في الصالات المُعتمة. ثم استدركت لتقول إنها جائعة، واقترحت عليّ أن نأكل الشاورما من عند "خيّاط"، ولا أحد غيره.

قالت وهي تلتهم الشطيرة:

ـ إن أطيب طعام في الدنيا، يتمثّل في شطيرة شاورما تلتهمها وأنت تسير

في شارع الحمراء!

عُدتُ أطوِّقها ونحـن نمـشي في شـارع "جـان دارك" ميممـين شـطر الجامعة الأميركيّة، حيث الطريق إلى بيتي الذي كان هناك.

توقفنا على الرصيف.

كان الضوء ينحسر قليلاً عن بقعة من الأرض.

إحتضنتها تحت واحدة من الأشجار الكثيفـة التـي تحجـب عنّـا عيـون النجوم، وقبّلتها دون تردُّد. كانت تلك هي المـرّة الأولى التـي أقبّلهـا فيهـا. وهي استجابت دون تمنُّع، وما كان يهمني، أنا الريفـيّ الخجـول، أن يلتفـت المارّة إلى ما يفعله عاشقان في عتمة ظلّت تسمح لضوء قمرٍ شحيح بالتسلل من بين أوراق الشجر العتيق.

كنتُ أصغي إلى فحيح دمها يصعد من مكانٍ قـصيّ وهـي تـذوب بـين ذراعيّ. وعندما انفصلت عني، انتفضت مثل حمامـة مبلّلـة، فكأنهـا تـنفض عن جسدها ما علق به من آثار القـبلات. لكننـي اندهـشت وأنـا أسـمعها تقول:

ـ إن أجمل شيء في الدنيا.. قبلة في شارع قليل الضوء.

إنتهينا إلى آخر الشارع، قريبـاً مـن بوابـة الجامعـة. دخلنـا بـار "أنكـل سام". شربنا بضع كؤوس من البيرة الباردة، وثرثرنا بحـرارة. تحـدثنا عـن كلّ شيء إلاّ عن مشاعرنا المتأججة في ذلك المـساء، وبـدا لي أن سـيلفيا قـد نسيت القبلات التي حدثت في العتمة، فقالت دون تردُّد:

ـ إن أحلى مـا في الـدنيا.. بـيرة بـاردة تُطلـق اللـسان المكبّـل، وتجعلـك تتصرّف على سجيتك!

لم تتردد سيلفيا في مرافقتي إلى بيتـي الـذي كـان هنـاك، في شـارع جـان دارك، فوق Talk of the town. قبلتني في المصعد القديم المتهالك، فبدت أشد تهالكاً. ثمّ إنها لم تطق صبراً، فقبّلتني ثانية وأنا أستخرج مفتـاح الـشقة

وأبحث عن ثقب الباب.

أمام السرير المهيّا، اشتعلت سيلفيا، وسقطنا معاً فوق فراشٍ ينتظر.

***

لم يوقظنا صياح الديك في ذلك الصباح. ويبدو أننا نمنا متحاضنين حتّى الظهيرة العالية، حين استيقظتُ، فجأة، على صياح ديك يؤذِّن بنزقٍ بعد منتصف النهار.

بدا الصياح معدنياً، متوتراً، كأنه النذير.

كانت الشّمس قد غافلتنا وزحفت لتتجاوز كبد السّماء.

لم أجد سيلفيا إلى جانبي في الفراش.

بحثت عنها في الصّالة والمطبخ والحمّام وعلى الشُّرفة الوحيدة، فلم أعثر عليها. لكنني وجدتُ على طاولة الصالون رسالة بحروف دقيقة بالانجليزيّة تقول: أنا آسفة. لقد أيقظني صياح غريب لديك يؤذِّن في الظهيرة. إنه بالنسبة لي نذير شؤم!

قالت أيضاً، وبخطّ بدا يميل إلى شيء من التشوُّش، إنها سوف تذهب لحضور احتفال تقيمه القيادة العامّة في جامعة بيروت العربيّة، ثمّ تعود مع الأهالي، في الحافلة التي تقلّهم إلى تلّ الزّعتر. ووعدتْ بأنها سوف تتصل بي بعد ظهر الغد، إن خابت هواجسها من ذلك الصياح الذي علا في الظهيرة.

غير أن ديوك المدينة عادت جميعها، ودون استثناء، لتطلق نُذرها المشؤومة، فواصلت الصياح المعدني الذي أيقظ سيلفيا من نومها، ليسلب من قلبي، وقلب المدينة، سعادة لن تعود!

***

ففي مساء اليوم نفسه، تردد في أفق بيروت صياح لم يتوقّف صداه المعدنيّ لحظة، وكان أفق المدينة يشتعل بحرائق لم تخمد، بعد أن سرى الخبر بأن حافلة عائدة من جامعة بيروت العربيّة إلى مخيّم تلّ الزعتر، وكانت

تحمل مدنيين فلسطينيين ومن جنسيات مختلفة بعد مشاركتهم في إحدى المناسبات، قد تعرّضت في منطقة عين الرُّمانة إلى هجومٍ مُسلّح شنّته مجموعة من الميليشيات اليمينيّة، حيث أمطروها بنيران أسلحتهم الرشاشة، فسقط عدد كبير من ركّابها بين قتيل وجريح.

***

منذ ذلك اليوم، لم أر سيلفيا مرّة أخرى، ولم أعثر عليها في أيّ مكان.

لقد غادرتني بعد أن رمتني بهواجس الإرتياب من ذلك المجهول، الذي يخبئه صباح ديكٍ في الظهيرة!

(4)

جميلة

من يعرف جميلة، سيلحظ كم غـدت، في أيّامهـا الأخـيرة، امـرأة بالغـة التعاسة، تائهـة الـروح، زائغـة العينـين، وغريبـة الأطـوار. تقطـع المسافة المتطاولة على الكورنيش، ما بين عـين المريـسة والرملـة البيـضاء، باحثـة في الأرض أو في الأفق البعيد، في تفاصيل الليل الهائم فـوق البحـر وفي رائحـة الموج، عن شيء ضاع منها، ففقدت بضياعه نفسها وبوصلة يومها وحياتها.

الأغرب من ذلك، أن جميلة أصبحت تقطع المسافة التـي تحـفّ الـصخر والرمال والمقاهي البحريّة، بانحناءاتها وتعرجاتها، دون أن تتوقّف لحظة عن طلي وجهها بالمساحيق وشفتيها بالأحمر القاني. وإذا ما توقفت، فلكي تُغرق نهديها وتحت إبطيها بنوع من العطر لم يعد يتغيّر، فيثـير حولهـا سـحابة وردٍ حادّ الأريج، غريب الرائحة، بات يميِّزها عن غيرها، فكأنما صُنع من أجلها وحدها.

ما الـذي حـصل يـا جميلـة، فأفقـدك رشـدك وجعـل جـسدك يـذوب ويتقصّف يوماً بعد يوم، فتذبل معه الرّوح ويتلاشى ألقها. تمشين مُـسرنمة، كأنك تتسكعين في غيبوبة لا تعرف طريقاً تهدي إلى اليقظة؟!

ـ إنه الحبّ!

تقول جميلة وهي تبتسم بشحوب جارف يجتاح وجههـا وروحهـا، ثـمّ تحدِّق في الفراغ. غير أنها تمسك عن التفاصيل، مهما بـدت الأسـئلة عنيـدة، والسائل ملحاحاً.

الذين يعرفون جميلة، يعرفون مهنتها التي تتعيّش منها منذ وقـتٍ بعيـد. فقد كانت حُرّة، لكنها لم تتحمّل قرصات الجوع، فأصبحت تأكل بثدييها.

الكلّ يعرف ذلك.

والكلّ يعرف أن جسدها أضحى مستباحاً منذ زمن طويل.

غير أن الكلّ يعرف أيضاً أن جميلة تبيع متعة الجسد منذ ذلك اليوم الذي عملت فيه لدى "ماريكا"، في واحدٍ من أزقة ساحة البُرج وسط المدينـة، في المنطقة الواقعة خلف البنك هناك. لكنها غادرت بيت المعلِّمة بعد أن مـسّته النيران الأولى لحرب الأخوة الأعداء، حتّى جعلتـه رمـاداً. فاختـارت، منـذ ذلك الوقت، أن تمشي على الكورنيش، ما بين عين المريسة والرملة البيـضاء، من الغسق وحتّى الهزيع الأخير من الليل:

ـ جسد للبيع.. جسد للبيع..

ينبعث النداء الصّامت صريحاً من جوف جميلة.

غير أن البيعة ظلّت محاصرة بشرطٍ وضعته البائعة لنفـسها وللآخـرين، وهو أنها لم تكن لترضى بأن تُفرِّط يوماً بشفتيها لعابر سبيل.

كانوا يسألونها:

ـ وبكم تبيعين القبلة يا بائعة الجسد؟!

فتردّ بحزمٍ وحسم شديدين:

ـ لا.. لا.. القبلة ليست للبيع.. إنها تُمنح مجاناً!

ثمّ تضيف للتوضيح:

ـ لكن ذلك لن يكون إلاّ لحبيبي!

ـ ومن هو حبيبك يا جميلة؟

ـ سوف يجيء.. حتماً سيجيء!

***

ولقد ظلّت جميلة على عهدها مع زبائنها من الطلبـة والمـراهقين، الـذين ارتضوا من بائعة الهوى العابر اجتناب الشفتين، ووافقوا على حـذف القبلـة من متعة جسد يشترونها بثمن بخس، يقدرون عليه.

مع الأيّام، أصبح الجسد الفتيّ يتراخى شيئاً فشيئاً، وبات يهتزّ بشحومه الوارفة، متثاقلاً وهو يقطع المسافة بين عين المريسة والرملة البيضاء. فلم تعد جميلة مرغوبة سوى من عمّال المياومة، الذين تركوا زوجات لهم في القرى البعيدة النائية وهنّ يتضوّرن رغبة، فيما هم يجنون ليراتهم القليلة هنا، والتي تمنحهم كفاف يومهم من الخبز والطعام الرخيص.. وجسد جميلة.

كانت جميلة تفترش مع رجلها العابر رمل الشّاطئ الليليّ وتتغطّى بظلمة دامسة ستّارة. تمارس مع زبائنها فعلاً سريعاً، مُرتجلاً، ملفّقاً.

وكانوا جميعاً، الذي مضى منهم، والمقيم، وربما من سيأتي من بعدهم، يعرفون أن جميلة تُقدِّم لشريكها كلّ شيء.. كلّ شيء.. إلاّ القبلة!

***

في تلك الليلة البعيدة، حدث تحوُّل جوهري قَلَبَ حياة جميلة..

كان القمر مُدوّراً، ينثر فضّته على الرّمل وماء البحر ويتدفّق مع زبد الموج، عندما اقترب منها ذلك الرّجل الغريب وهي تمشي على رمل الشاطيء، تسبقه إليها رائحة عرقٍ ذكوريّ طاغٍ، دهمتها مثل هبّة هواء قادمة من عُمق الماء المالح.

كانت الرائحة حادة، حريفة، أربكتها حين استشعرت تغلغلها في مسامات الجسد المتشوّق للرجل. رائحة مضمّخة بالطحالب والموجِ الآتي مع فجرٍ مندّى.

بدا لها الرّجل وكأنه مولود من صدف البحر، وقد ظلّت رائحة ترابٍ ريفيّ بعد مطرٍ أوّل تخالط عرقه، فلا تشبهه رائحة.

غير أن ما أربك جميلة أكثر، هو أن الرّجل قال لها إن رائحتها هي التي جذبته إليها من مكان قصيّ في المدينة.. من شرقها الذي هناك!

فهل هي رائحة امتزاج عطرها مع عرق جسدها، أم هي رائحة المساحيق التي تضعها على وجهها مع الأحمر على شفتيها. أم إنها رائحة

مكتنزة في مكان سريّ من البدن، مخبأة لمثل هذه اللحظة.. ولرجـل يـستحقّ عبيرها؟!

سألها الغريب الذي لم يكن قد رأى جميلة من قبل:

ـ بكم تبيعين القبلة يا امرأة؟

كان الرّجل يتضوّر رغبة لامتصاص رحيـق الـشفتين. فكـرّرت جميلـة إجابتها الجاهزة:

ـ كلّ زبائني على الكورنيش يعرفون أن قبلتي ليست للبيع..

ثمّ أضافت بتلقائيّة، دون أن يُبدي الرجل دهشة أو يطرح استفساراً:

ـ إنها مخبأة لحبيبي!

وعندما طرحت عليه ثمن الجسد منزوع القبلات، إكتفى بالقول:

ـ أنت يا امرأة لا تقدّرين بثمن. وهذه الرائحة التي جذبتني من بعيد، لا مثيل لها في امرأة أخرى.. في أيّ مكان في الكون!

ارتبكت جميلة وقد ألجمتها عبارة الرّجل وحمّمتها بخجل يـستُر رعـشة فخرٍ خفيّ لم تعرفهـا مـن قبـل، فـازدادت رائحـة الرّجـل الغريـب توقـداً، وسرحت في جسدها لتجتاح كلّ تفاصيله وزواياه البعيدة.

توسّدت جميلة الرّمل في ركنٍ متـوارٍ عـلى الـشاطىء، متـدثرة بالعتمـة، لتمنح الأرض ظهرها، والرّجل جسدها وكلّ عبقها، ولتغـرق هـي، بكـلّ أشواقها، في رائحته الطاغية.

على صفحة السماء العالية، المرشوقة بالنجوم، رأت جميلة نجمة تغمز لها من بعيد. وفجأة، دون مقـدمات، وبـإرادة مـسلوبة تمامـاً، مقـادة بـسلاسل لامرئيّة، وجدت نفسها منجذبـة للقيـام بفعـلٍ دون حـساب، ومـن تلقـاء نفسها!

حرّكت شفتيها نحو الرجل الذي ما جاء إلاّ ليقبلهـا ويمـضي. ومـا أن تلامست الشفاه حتّى توقدت بنيرانٍ مخبوءة منذ زمـنٍ بعيـد يـسبق الـزّمن،

واحتدمت في مزيج العسل والروائح المؤجِّجة المنبعثة من أمكنة حميمة. وعندما مسّ اللسان اللسان، اشتعلت الغابات في الأقاصي البعيدة للجسدين المذابين في ليل المدينة. ارتعشت النجمة في سمائها، وارتعشت جميلة على أرضها للمرّة الأولى، رغم آلاف الرجال الذين عبروا حدود الجسد المباح. اخترق السّهم الحارق جدار القلب الذي طال تمنُّعه وتطاولت منعته، وشعرت جميلة أن قلبها ينخلع ليخفق في الحنايا والضلوع، كما لم يخفق من قبل.

أبت أن تتناول الليرات الممدودة إليها من يد الرّجل، وتركته بقبلة وداع، ووعد باللقاء.

***

لم يأتِ الرّجل مرّة أخرى، فقد انفجرت المعارك وتطاولت نيرانها. تقاسم المتقاتلون المدينة بين شرق وغرب، ورشقوا الأرض بالحواجز.

لم يأتِ الرّجل،

لم يأتِ..

رغم ملايين الموجات القادمة من البحر، ورغم مرور فصول وتجدُّد شتائين حرِّكت زخاتها الأولى غبار الأرض ورائحة التراب.

أمّا جميلة، فقد توقفت منذ ذلك اليوم عن ترديد نداءاتها المعتادة: جسدٌ للبيع.. جسد للبيع.

وقد أصبحت تقول بحسم، عندما يستوقفها أحدهم وهي تمشي على الكورنيش، ما بين عين المريسة والرملة البيضاء، منهمكة في رشّ عطرها تحت الإبطين وما بين النهدين، أو طلي وجهها بالمساحيق وشفتيها بالأحمر:

ـ لا.. هذا الجسد لم يعد للبيع..

إنه لحبيبي..

ولن يكون إلاّ لحبيبي!

***

كبرت جميلة خلال عامين احتدمت فيهما الحرب، ومرّا مثل أزمانٍ طويلة، مملّة وقاسية.

وفي أيامها الأخيرة، عانت العاشقة من الهزال.

جفّ عودها ونشف نسغ الروح فيها.

ضمر الجسد وذاب عشقاً وانتظاراً ولوعة.

أصبح شعرها مشعثاً. صار يتقصّف ويتساقط على الأرض حيثما حلّت، فيُنبت عُشباً محترقاً.

أخذت تبالغ في التعطُّر وطلاء وجهها وشفتيها بالمساحيق والأصباغ وهي تمشي على امتداد الكورنيش، ما بين عين المريسة وحتى الرّملة البيضاء. وقد تراكمت طبقات الألوان فوق بعضها على الوجه الذّاوي وباتت تنمّ عن قباحة تتكرّس يوماً بعد يوم. ناهيك عن الأحمر القانيّ على شفتيها، حتى قيل للتندُّر، إن جميلة أنجبت ابن زنى بعد ليلة أفرطت فيها في العمل، لكنها أكلت مولودها ابن يومه، وتلك هي آثار الفعلة الشنيعة واضحة على شفتيها!

والحقيقة التي لم تعد قابلة للإنكار، هي أن جميلة قد جُنّت.

وفي كلّ يوم كانت المرأة تغوص أكثر فأكثر في عالمٍ لا عقل له.

يراها الناس وهي تضحك أو تبكي دون سببٍ يدعو للضحك أو البكاء، لكنها ظلّت تبتسم للنسمة العابرة الآتية من البحر. ولم تتخلّ يوماً عن عادتها بالمشي على الكورنيش بعطرها المهيّأ ومساحيقها وأحمر شفاهها الزّاعق الخارج عن حدود الشفتين، رغم القصف العنيف المتبادل بين الشرق والغرب.

تعوّد الناس على جنون جميلة..

بدت لهم أنها جزء من جنون الحرب التي عرفتها بيروت وتعودوا عليها

حتّى الإدمان.

***

غير أن أهل المدينة استيقظوا ذات صباح هدأت فيه أصوات المدافع، بعد يومين وليلتين من القصف المتبادل المتواصل، فلم يجدوا جميلة. وقد احتاجوا لأيّامٍ أخر ليكتشفوا أن جميلة قد اختفت عن الأنظار تماماً ولم يعد لها وجود.

تساءل الناس الذين افتقدوا مشهد المرأة التي تمشي على الكورنيش مع أصباغها الزّاعقة: أين راحت جميلة؟!.

أين ذهبت؟!

أين اختفت؟!

هدأ القصف دون أن يهدأ السؤال المدوّي.

ولم يكفّ شرق بيروت عن محاولات العثور على إجابة:

قيل إن رجلاً جاءها في زورق توقف عند المنحنى الصغير الحادّ في الرّملة البيضاء، احتضنها وقبلها بلهفة، ثمّ شدّها من ذراعها وعاد بها في زورقه محمولاً على الماء إلى حيث جاء.

وقيل إنها قطعت الحواجز عند البربير ثمّ تعدّت المتحف، لتمضي بخطى واثقة نحو الشّرق، حيث كان ينتظرها بلهفة، رجل بدا مُشرِّعاً لها ذراعيه من خلف المتقاتلين المستنفرين بسلاحهم المهيّأ هناك.

وقيل إن قذيفة خطفتها في ذروة القصف وهي تسير على الكورنيش تائهة، غير هيّابة بالقذائف المنطلقة من الشّرق والقادمة من الغرب، لتأخذها إحداها إلى حيث الحبيب الذي ينتظر!

الذين يرجحون الاحتمال الأخير، يقولون إنهم عثروا هناك، على رصيف الكورنيش، حيث تعوّدت جميلة أن تسير، في المسافة بين عين المريسة والرّملة البيضاء، على زجاجة عطر أليف الرائحة، وعلب مساحيق كثيرة.. وأقلام كثيرة من أحمر الشفاه.

(5)

على قارعة الطريق

في الشهور الأولى للحرب، كنتَ تهبط نحو بيتك في شـارع كليمنصو، قريباً من الهوليداي إن.

تعبر أمكنةً تلفّها سكينة مُخادعة.

صمتٌ مُدوٍ يحرِّك الهواء الراكد.

هدوء يبدِّد هدوءك، وتحذير بخطٍ رديء من رصاصة تكمن لك في الزوايا وأسطح البيوت والنوافذ المريبة.. تحذير من قنّاصٍ يقتلك لأسبابه الخاصّة، أو لأنه لا يمتلك سبباً لقتلك، فيقتلك.

يقتلك بدم بارد. ثمّ يُدخِّن سيجارة مشتهاة وهو يرتشف جرعة من زجاجة بيرة في يده شارفت على نهايتها.

كانت حرب الفنادق المجاورة للبيت، أو تلك التي وضعت البيت نفسه في أتونها الملتهب، تشهد كرّاً وفراً.

وكان الرُّعب يكمن في خطواتك المتسارعة، وفي تلك الفكرة التي لم تفارقك أبداً: حاجز طيّار يوقفك على طريق البيت، يُنحّيك جانباً، مُلصقاً ظهرك على جدار يعجّ بالشعارات المتضاربة، ويطلب هويتك!

***

فجأة، ودون مقدِّمات،

تقع الواقعة..

تقفز الهواجس من رأسك لتنتصب برعبها الكامل على الأرض.

يوقفك حاجزٌ ارتجله على التوّ شبّان مسلحون هبطوا من سيارة جيب عسكريّة بحركة سريعة تشبه مشهداً مستعاراً من فيلم أميركي لا يملّ من

تكرار نفسه:

ـ هويتك!

ها هو أحد الشبّان المسلّحين يقرأ المعلومات المتعلِّقة بك. اسمك.. وعمرك.. وديانتك.

تتوقّف عيناه ملياً في الزّاوية الأخيرة.

تتأمّلُ عيون الشّاب دون إفراط في التحديق. ترى فيها نهماً لقتلٍ مجّاني ستكون ضحيّته، أنت الذي صالحت في داخلك، منذ طفولتك البعيدة، بين هويتك وهوية هذا الذي تستفيض عيناه في تأمّل هويتك.

يطلب منك الشباب أن تمنح وجهك للحائط القريب وتُعطي لهم ظهرك، كما العادة المُتبعة منذ بداية الحرب.

فجأة، يقترب أحدهم منك، كما العادة.

يُخرج مسدسه بهدوء، كما العادة أيضاً.

وبهدوء لا يُشبه الهدوء أبداً، ولكن باستعجال، لأن لدى الشباب مهمّات قد تكون أكثر نُبلاً، يُطلق أحدهم رصاصتة الضّجرة في رأسك، ثمّ يمضي.

***

يمضي الشبّان بعيداً، يمضون تاركين خلفهم جثتك ملقاة على قارعة الطريق، في شارع كليمنصو، قريباً من الهوليداي إن!

(6)

زمن المراكب الضيِّقة

"ليدخل الصيف الآتي من البحر، للبحر وحده سنقول
كم كنّا غرباء في أعياد المدينة"

....

"ضيّقة هي المراكب،
وأكثر ضيقاً حدُّك يا جسد الحبيبة الأمين"

(سان جون بيرس)

هبط علينا فجأة في ذلك اليوم الحارّ من أواخر تموز الملتهب، وكان خارج الانتظار، خارج التوقُّع.

لم يكن القصف الذي شهدته بيروت الغربيّة في ذلك النهار قد توقّف. ولا أدري أي دربٍ سلكه الرّجل حتّى اهتدى إلى بيتنا.

قال إنه عمّي.

ولم أكن قد رأيته أو عرفته من قبل!

جاء عمّي الذي ليس عمِّي مُحمّلاً بالهدايا، وها هو يعود أدراجه الآن، مُحبطاً، حزيناً، ومحمّلاً بالخيبة.

***

لم أندهش لأن عمّاً لي، لا أعرفه، كان يقف بالباب إلى جانب حقيبة سفره، ويتهيّأ للدخول إلى بيتٍ يوقن أن بابه لن يُغلق في وجهه، ولن يصدّه مهما بدا ضيِّقاً ولا يتسع لضيوفٍ يأتون من خارج الانتظار.. خارج التوقُّع.

رحّبتُ به، رغم أن أبي كان وحيدَ أهله. لكن الوالد، الذي أحزنه سؤال طفله، عن أخوته الغائبين، الذين من المفترض أن يكونوا أعماماً لي، علّمني منذ الصِّغر، أن كلّ أقاربي من الرجال الكبار هم أعمامي. وبذلك، فقد تكاثر الأعمام في طفولتي وتزاحموا، بحيث أصبحتُ عاجزاً عن تمييز بعضهم عن الآخر!

عمّي، الذي ليس عمّي، لم يكن بحاجة لإذن دخول لبيت ابن أخ له لم تلده أمّه. سبقته كلمة "دَستور" عالية، ودخل.

كان يعرف أنني متزوج حديثاً، وربما لذلك أطلق دَستوره، طويلة

وممدودة، حتّى تَتستّر المرأة التي في الداخل، فالعرسان الجدد يستمتعون بالعري. هكذا يعتقد العجائز الذين فقدوا تلك المتعة. ثم اكتشفتُ، بعد قليل، أن الرجل الذي يقول إنه عمِّي، جاء إليّ وهو يعلم علم اليقين أن شقّتي لا تضم سوى غرفة واحدة وصالة، إلى جانب المطبخ الصغير والحمّام الوحيد، وشرفة تطلُّ على رقعة بعيدة، متضائلة، من زرقة البحر. وتحتها مباشرة يقع قصرٍ قديم بحدبقته الغنيّة بورودها، والتي تحتضن شجرة أرزٍ كبيرة، قد تكون الوحيدة في بيروت!

بارَك لي العمّ بزواجي. وتحدّث عن الزمن الذي يمرُّ علينا بسرعة:

ـ بالأمس كنتَ صغيراً.. أحملك على ذارعي. وها أنت اليوم أصبحت عريساً!

ذكّرني بطفولتي.. بأحداثٍ أذكرها، وأخرى مُضبّبة، أو غائبة عن ذاكرة فتيّة، ربما ليقطع شكي بيقينٍ أنه عمّي. ثمّ شرع يُخرج هداياه: منامة حريريّة رقيقة لي، وقميص نوم أحمر شفّاف لزوجتي، يعتقد عمّي الذي ليس عمِّي أنه من لزوم الغواية الأنثويّة. هدايا لم تكن بالنسبة لنا تصلح للاستخدام، حيث كنّا نضطر، في حالاتٍ كثيرة، إلى مغادرة البيت مندفعين بسرعة فائقة عندما يشتد القصف على المنطقة التي نسكنها، لنهبط إلى القبو أسفل العمارة. ولا يُعقل أن ننحشر مع الجيران بمنامة حريريّة وقميص نومٍ فاضح يكشف للملأ عن مفاتن عروس في ريعان عسلها.

والحقيقة أنه جاء محمّلاً بهدايا أخرى. قلم حبر "شيفرز" لي، ونظارة شمس لزوجتي. ولاعة "ديبون" لي، وقرط لزوجتي، ناهيك عن الهدايا التي حملها لنا من أخوتي في الكويت، ومن والدي الذي أعطاه عنواني وقال له إنني، ولا أحد غيري، سيساعده في المهمّة التي جاء بيروت من أجلها.

أضاف الرّجل الذي جاءنا من خارج الإنتظار والتوقُّع:

ـ لا تقلقوا بشأن نومي.. فأنا أنام هنا، في الصالة، على هذه الكنبة.

ولم يكن لدينا حلّ آخر، أو اقتراح بديل. أمّا الاعتذار عن عدم القدرة على استقباله، فقد كان خارج البحث أو التفكير!

***

كان علينا أن نرفع أصواتنا للحديث مع عمّي الذي ليس عمّي. فقد ظلّ حريصاً على أن يضع أصابعه حول أذنه ويوجهها نحونا كي يَسمعنا بشكل أفضل. ثم توصلنا، زوجتي وأنا، إلى أنه من الأفضل، له ولنا، أن نُصغي إليه أكثر مما نتكلّم، مع التقليل، ما أمكن، من فتح الحديث معه.

لكنه كان هو الذي يرغب في فتح الحديث. فلم يطل به الوقت ليدخل في صلب المسألة التي جاء من أجلها، فقال متسائلاً:

ـ هل تتذكّر "لولو"؟

حاولتُ أن أتذكّر، فلم أفلح. وعندما أدرَك أنني لا أذكر شيئاً عن صاحبة الاسم، قال:

ـ لولو ابنتي. طبعاً لا تذكرها، فهي أصغر منك بعشر سنوات على الأقل. لم تلعبا معاً ولم تذهبا إلى الروضة يداً بيد، فكيف ستذكرها؟!

انتظرتُ قليلاً ليكمل، من غير أن أضطرّ إلى طرح السؤال عن لولو التي بدأ حديثه بها، ويبدو أنها بيت القصيد في سرّ مجيئه إلى بيروت.

تنهّد طويلاً قبل أن يقول بحسرة:

ـ هل يا تُرى سأجد لولو على يديك؟!

ازدادت دهشتنا. تطلّعتُ إلى يديّ بأصابعها الناحلة، ثمّ نظرت إلى عينيّ زوجتي متسائلاً بصمت: كيف سأجد له لولو التي لا أعرفها؟!

لكنه واصل سرد الحكاية دون انقطاع:

ـ كبرَت لولو. بعد ثلاثة شهور ستبلغ الثامنة عشرة. لم ننتبه إلى أنها كبرت.. أصبحت تقرأ الكتب.. تتابع الأخبار.. تتحدّث كثيراً عن فلسطين وتهمس في الهاتف. لم ننتبه إلى أنها كبرت إلى هذا الحدّ إلاّ بعد أن غادرتْ

البيت بلا رجعة. في الليلة الأولى سألنا عنها كلّ المعارف والأصدقاء. سألنا المستشفيات وأقسام الشُّرطة في كلّ أنحاء الكويت، فلم نعثر لها على أثر. وفي اليوم التالي لغيابها، جاءتنا إحدى صديقاتها برسالة تركتها لديها، تقول فيها أنها اتخذت قرارها النهائي، والذي لا رجعة عنه، بالسّفر إلى بيروت، لأن أحلامها كلّها هناك!

.. هكذا قالت بالحرف الواحد!

كان علينا ـ أضاف الرجل الذي يقول إنه عمّي ـ، لكي نتأكّد من صحّة ما جاء في الرسالة، أن نسأل في المطار، علّهم يجدون اسمها في قوائم المسافرين.

بعد يومين من الإلحاح، قالوا لنا إن اسمها موجود بالفعل في قائمة ركّاب الطائرة الكويتيّة التي غادرت قبل ثلاثة أيّام إلى بيروت. كيف ومتى حصلت على تأشيرة دخول، لا ندري! لقد احتجتُ، أنا العجوز، إلى أسبوع لكي أحصل عليها!

لا يهم، المهم أنها الآن في بيروت، وليس لي غيرك ـ يا ابن أخي ـ من سندٍ في هذا البلد. ليس لي غيرك من يجدها ويعيدها إليّ.

لم أطرح عليه سؤال لماذا اختارني. فقد فهمتُ من حديثه عن اهتمامها بفلسطين، أنها جاءت إلى هنا لتعيش في قلب القضيّة، فتنضمّ إلى أحد التنظيمات الفلسطينيّة، التي ربما تكون قد تعرّفت إلى بعض عناصره في الكويت.

اعتقدتُ بأن المهمة ستكون سهلة بالنسبة لي، والدائرة التي سنبحث فيها لن تتجاوز الفاكهاني ومحلّة أبي شاكر ومنطقة الجامعة العربيّة. ثمّ أن الأمر لا يخلو من وجود معارف لي في كلّ التنظيمات، حيث أكتب في صحفهم دون تفريق. فلا فرق لديّ بين يسار ويمين ووسط!

لكن زوجتي اضطرت، تسهيلاً لمهمتي، أن ترفع صوتها عالياً لتسأله إن

كانت لولو تنتمي إلى إحدى المنظمات الفلسطينيّة التي تعمل في الكويت.
فأجاب بارتباك:

ـ لا أعرف. أكيد أنها كانت تعرفهم هناك، وإلاّ فإنها لا تأتي على عَماها. لولا أنها كانت تعرفهم، لما أتت. لكنني لا أعرف اسم التنظيم الذي أغراها بالسّفر!

قالت زوجتي لتطمئنه:

ـ لا تخف، سوف نجدها لك. لا تخف.

انفعل وهو يقول، مغالباً دموعه الواقفة بلمعانها عند حواف مقلتيه:

ـ كيف لا أخاف. البنت صغيرة، وأخشى أن حبّها لفلسطين يكون السبب في وقوعها في المحظور، فتخسر شرفها الذي أحطناه برعايتنا. تستحق القضيّة أن نخسر من أجلها كلّ شئ. ولكن هل تستحق فلسطين أن تخسر البنت شرفها من أجلها؟!

نزع عينيه عن زوجتي ووجَّه نظراته صوبي وهو يقول:

ـ تُحكى الكثير من القصص التي تحدث في التنظيمات، وفي القواعد التي يختلط فيها الجنسان، خاصّة الشيوعيّة منها، حيث لا يتردد الواحد فيها عن النوم مع أمّه أو أخته. فكيف بصبيّة كالوردة، لم يشتمّ عطرها أحد!؟

كان من المستحيل أن أفتح معه حواراً أنفي فيه ما يُشاع. فلا الحنجرة تسعفني ولا طبلة أذنه تسعفه، ولا الوقت يسعفنا نحن الاثنين. ثم إنه ليس هناك من داعٍ للدخول في تفريعات لا تفيد الهدف الذي نسعى إليه كلانا.

***

طوال الأسبوع الذي قضاه عمّي الذي ليس عمّي في بيروت، لم نتوقّف، زوجتي وأنا، عن استغلال لحظات الهدوء التي تشهدها المدينة. كان توقُّف القصف، يتيح لنا أن ننطلق صوب الفاكهاني. وزّعنا أنفسنا ما بين المنظمات النسائيّة، والإدارات السياسيّة والمؤسسات المدنيّة للتنظيمات المختلفة. نطرق

الأبواب ونحن نحمل صورها الحديثة التي جلبها والدها معه من الكويت. أمّا الدور الذي أناط به نفسه، فهو البحث عن اسمها في المطار، حيث أكدوا له هناك أنها وصلت بيروت بالطائرة في التاريخ الذي حدّده. غير أن سؤاله عنها في مقر الأمن العام، لم يُسفر عن أي شئ!

بعد ذلك، أصبح العجوز، الذي ازداد عجزاً وكآبة خلال أيّام قليلة، يتردد على مقاهي الرصيف، في الحمراء وقرب الجامعة العربيّة وعلى الروشة، يطلب فنجان القهوة تلو الآخر. يتفرّس في وجوه الصبايا العابرات علّه يصطدم بوجهها. وكم من مرة تلبّس خيال وجهها سحنة فتاة أخرى ظنها هي، فيلاحقها، ليكتشف أنها ليست لولو.

لم نكتف بطرق الأبواب الكبيرة والمتوسطة. لم نكتفِ بمكاتب "فتح" و"الشعبيّة" و"الديمقراطيّة"، التي لم نعثر فيها على أي أثرٍ للصبيّة. طرقنا أبواب "جبهة النضال الشعبي" و"القيادة العامّة" و"جبهة التحرير الفلسطينيّة"، فلم نعثر عليها. سألنا في مكتب "الجبهة الوطنيّة". ثمّ عثرنا، بعد السؤال، على مسؤولٍ في "حزب العُمّال الشيوعي"، فلم نستفد شيئاً.

بعد أسبوعٍ من البحث المضني، أعلنا للعجوز، زوجتي وأنا، بصوتٍ عالٍ، وإن ظلّ مهزوماً، أن جهودنا، للأسف، ذهبت سُدىً. مضيفين بحزنٍ على النتيجة التي توصلنا إليها، إنه لن يكون بمقدورنا مساعدته، أكثر من ذلك، في مهمّة العثور على لولو، متكتمين عن شكّنا بأن حبّها لفلسطين ربما يكون قد أودى بها إلى التهلكة!

ولقد بحثتُ وزوجتي في الاحتمالات الممكنة، فرجّحنا أن تكون الفتاة قد ضلّت الطريق من المطار وتاهت في سراديب مدينة تعيش في زمن الحرب، وربما تكون قد خُطفت قبل أن تصل إلى تنظيمها. أو أن تكون قد صُفيَت وأخفيت جثتها، وهي على أي حال ليست الجثّة الأولى ولن تكون الأخيرة. لكن هذه الأفكار والهواجس كانت تتم بعيداً عن أسماع رجلٍ

يعوزه السّمع.

***

كان الأسبوع الذي قضاه العجوز بيننا كافياً لكي أكف عن وصفه بعمّي الذي ليس عمِّي. فقد مسّتني حقيقةً كلماته التي يصفني فيها قائلاً: "يا ابن أخي". وانتبَهَتْ زوجتي إلى أنني أصبحتُ أخاطبه، وأتحدّث عنه معها، بكلمة: "عمّي"، دون أيّة أداة نفي، أو تحفُّظ!

لم تقنعه تطميناتنا بأننا سنواصل البحث عن لولو بعد رحيله، فمثل هذا الأمر لم يكن يُقنعنا نحن في الأساس.

وأمام حقيقة عجزنا وعجزه عن إمكانيّة الوصول إلى لولو. وبعد تردُّد طال، اتخذ عمّي قراره الصّعب بالعودة إلى حيث جاء، وقد بدا مثقلاً بعار الهزيمة.

وها هو الرجل، الذي جاءنا قبل أيّام مُحمّلاً بالهدايا، يعود الآن.. محمّلاً بالخيبة!

***

ولكن كيف يعود؟!

كان المطار قد أُغلق منذ يومين لشدّة القذائف التي تساقطت على مدرجه. أمّا طريق دمشق البريّ، فلم يعد مأموناً، حيث تحتدم هناك معارك الجبل الضارية.

قال بيأس، وهو يتطلّع، للمرّة الأولى منذ مجيئه، صوب البحر:

ـ لم يبق أمامي سوى البحر!

وأضاف شارحاً:

ـ سألتُ فقيل لي إن هناك مراكب صغيرة تُبحر إلى الإسكندرية من ميناء صور. وإذا ما وصلت إلى مصر، فلن تكون الكويت بعيدة.

قلنا له:

ـ ألا تنتظر بضعة أيّام أخرى، فقد تتحسّن الأمور. يُفتح المطار أو تكون طريق دمشق أكثر أمناً!؟

قال بحزن ولكن بحسم:

ـ لن أكون قادراً على الإنتظار دقيقة أخرى. سوف أتألم وأنا أطأ تراب مدينة انشقّت أرضها وابتلعت ابنتي.. وكلّ ذنبها أنها أحبّت فلسطين!؟

***

الشيء الذي أفلحنا فيه مع الرجل مكسور القلب، هو أن نرافقه في رحلته إلى صور، فنطمئن عليه، أو نعود به معنا إلى بيروت إذا لم يُوفّق بباخرة، انتظاراً لفرصة أخرى للسّفر.

على أطراف ميناء صور، وقفنا إلى جانب المركب الصغير الواهن الذي وجدناه مهيئاً للإبحار إلى شواطئ الإسكندرية. كانت الحروف المكتوبة بخط بدائي تشير إلى الاسم الذي حمله المركب.. "عبد الباسط"!

اشتممنا رائحة قِدَم تنبعث من الخشب المُشبع ببقع راسخة من الزيت الأسود، فتشي بعتق المركب. دون أن تفلح قشرة الدهان الحديث الملطّخة على جسمه المتهالك، في إضفاء مسحة وهميّة من الجدّة عليه.

لكنه الرحيل،

وحده الرحيل كان الحلم المتيقّظ في العيون الملتفّة حول المركب.

مئات العيون ظلّت تتوحّد في حلم السّفر، ومئات الأقدام كانت تُعلن استعدادها للصعود إلى سطح المركب الضيّق. صناديق، وأكياس، وبطاطين، وحقائب كثيرة. حقائب جميلة وغالية، وحقائب فقيرة متداعية تتماسك بحبل يلتف حولها. وكلّ الحقائب تتساوى في انتظار الرحيل.

الهواء مبلل برائحة البحر. وأنا أوزّع نظراتي بين عمّي والمركب.

لا بدّ وأن "عبد الباسط" كان مركباً فحلاً في الزمن الغابر، يجتاح البحر كلّ يوم، يحفظ كلّ قطرة ماء بين الإسكندرية وموانئ لبنان، قبل أن

تغزو السُّفن الحديثة هذا البحر وتلتهم المراكب القديمة. ولكن ها هو زمنه يجيء، يفكّ عنه أصفاد المرسى التي اعتقلته طويلاً في زاوية مهملة على أطراف ميناء الإسكندرية.. يكشط عن بدنه الطحالب التي تسلقته بفعل المطر والصدأ الذي جاء به ماء البحر.. يُخرج نفسه من النسيان.

الآن جاء زمنه، جاء زمنك يا "عبد الباسط".

فمراكب مثله وأصغر منه أصبحت تجتاز الماء بين بيروت والإسكندرية في ثلاثة أو أربعة أيّام. فلماذا لا يكون "عبد الباسط" واحداً منها.

هذا زمنه..

هذا زمنك يا "عبد الباسط"!

***

وحده عمّي كان خارج كلّ ذلك.. خارج الإنتظار، وخارج الترقُّب.

عيونه تفضحه.

لم يكن الرحيل بالنسبة له حلماً.. كان خيبة.

وكان العجوز يقف على بعد خطواتٍ منّا، شارد الذهن، مستسلماً لكل شيء، وقد بدا أكثر وهناً، وأنه كبر أعواماً عديدة خلال الأيّام السبعة الماضية.

اقتربتْ زوجتي مني وهمستْ بصوتٍ خفيض:

ـ سنجني عليه لو تركناه يسافر على ظهر هذا المركب. دعنا نعيده معنا إلى بيروت حتّى يجد وسيلة أفضل للسّفر.

عندما تطوّعتُ بنقل الاقتراح إليه، أبى مواصلة الاستماع. أبدى رفضاً قاطعاً للفكرة. لوّح بيديه في الهواء. تفلّت مني كما لو كنتُ أتشبّث به بمخالب صقر. حمل حقيبته وتقدّم من المركب أكثر وأكثر، معلناً إصراره على الرحيل.

عندما أزِفت اللحظة التي تدفّقت فيها الأجساد والأشياء إلى سطح

المركب عبر الخطوط الخشبيّة التي امتدت لتصله برصيف الميناء، كان عمّي يقف جامداً، يراقب مشهد المندفعين بعينين زجاجيتين وكأنه ليس جزءاً منه. حسبتُ للحظة أنه تراجع عن السّفر، وعندما رغبتُ في التأكد من ذلك، خيّب ظنوني، مُجدِّداً رفضه فكرة البقاء، وبشكلٍ حاسمٍ وحازم.

بتعبٍ ووهن شديدين، مدّ يده نحوي دون أن ينطق بطلب المساعدة. أمسكتُه من يده. اقتلعته من مكانه وسحبته. صعدتُ به على لوح الخشب الصّاعد بانتباه شديدٍ وحرصٍ على حفظ التوازن، فأي اختلال بسيط قد يؤدي به إلى السقوط في الماء.

كان يتكئ عليّ وعلى أوجاعه مواصلاً الصُّعود. وفي لحظات كثيرة، كنت أحسّ بأنه غير عابئ بالسقوط.

كنا ما نزال نسير على الخط الخشبي الواصل بين الميناء وسطح المركب، عندما توقّف فجأة وكأنه تذكّر شيئاً نسيه على الميناء. إستدار ونظر نحو زوجتي. لوّح لها بيده المتعبة، فوجدها تغالب دمعها. وعندما لوّحت له من هناك، كانت تغص بالبكاء. طفرتْ من عينيه دمعتان، وواصلنا الصعود.

سألتُ عن ربّان المركب، فدلّوني على عمّ "سطوحي"، الذي بدا لي وكأنه قد تم تفصيله خصيصاً ليقود هذا المركب دون غيره. رجل عجوز يتشبّث بحيوية تحاول التفلُّت منه. سلّمت عليه، ونقدته مبلغاً من المال، ثم أوصيته خيراً بالعجوز.

انتبهتُ إلى أنني أوصي عجوزاً بعجوز.

أمسكه سطوحي من يده التي أخذت ترتجف، ليقوده إلى زاوية قريبة، أجلسه فيها وهو يقول له:

ـ هنا مكان دافئ.. أدفأ مكانٍ على ظهر المركب. وسأجلب لك بطانيّة. مع أن صوت الآلة هنا سيزعجك قليلاً.

قلت له مطمئناً:

ـ لا تقلق يا عم سطوحي.. فالصوت لن يزعجه!

***

مرّت شهور قليلة، استعدتُ خلالها وزوجتي الصورة الأخيرة لعمِّي الذي أصبح عمِّي، وهو يذوب بين البشر المتزاحمين على ظهر مركبٍ تئن آلته المتهالكة، ثم ينفصل شيئاً فشيئاً عن اليابسة ويذهب في الأزرق الغامض البعيد.

لم ننتظر منه رسالة تطمئننا على سلامة الوصول. ففي تلك الأيّام، كانت الرسائل ترفاً ومطلباً فائضاً عن الحاجة. وإذا ما وصلتك رسالة بالمصادفة، فسوف تكون عاجزة على إثارة الفرح أو الحزن أو الغضب، أو أيّة انفعالات ومشاعر حارّة أخرى، مهما كانت طبيعتها، لأن الفجوة بين زمن الإرسال وزمن الوصول تكون واسعة، وقادرة على نزع أي أثر للدهشة التي تبعثها الكلمات.

وكدنا، في غمرة الموت اليومي الذي يلاحقنا ويحصدنا واحداً واحداً، ننسى العجوز تماماً. أو أن مروره في ذاكرتنا أصبح شبحيّاً، ومثل الغمام.

لكن ما حدث في ذلك اليوم، أعادنا من جديد إلى قلب الدائرة، التي يبدو أن العمّ ترك نارها مشتعلة تحت ما كنّا نحسبه رماداً.

في ذلك اليوم الهادئ، عند المساء، كنّا نتهيّأ لتجهيز الشموع التي كثيراً ما نلتجئ إلى ضوئها عند انقطاع التيّار الكهربائي، عندما سمعنا طرقات خجولة على باب البيت. توجهت زوجتي لتفتح الباب. ومن هناك، سمعتُ اسمي يتردد على لسان صبيّة. دعتها زوجتي للدخول، فدخلتْ بصحبة شاب طويل لا يخلو من وسامة. سلّمتُ عليهما وأجلستهما في الصّالة. فتاة حنطيّة، فيها مسحة من جمالٍ غجريّ. عينان سوداوان، وشعرٍ متمرِّد، وحيويّة تتفجّر من صمتها.

لم يمرّ وقت طويل، لتفصح الفتاة عن سبب مجيئها:

ـ أنا قادمة للبحث عن والدي. إنقطعت أخباره منذ ثلاثة شهور. قيل لي إنكما الوحيدان اللذان يمكنهما مساعدتنا في العثور عليه!

صاحت زوجتي بفرحٍ لم أجد له مُبرراً:

ـ إذن فأنتِ لولو؟!

هزّت الفتاة رأسها وهي تقول:

ـ نعم.. أنا لولو، وهذا زوجي.. "فادي"!

أربكتنا لولو في السؤال عن والدها. فنحن لم نعد نسمع عنه شيئاً منذ أن انزلق به المركب الضيّق ليمخر فوق صفحة الماء الزرقاء المجعّدة. حاولنا كسب الوقت للتفكير في إجابة مُقنعة. ولذلك ارتأت زوجتي، وطاوعتها بتواطؤ صامت، على أن نرد على استفسارها بوعد غامض، وعن سؤالها بسؤال:

ـ سنذهب معاً لنسأل عنه حيث تركناه في المرّة الأخيرة. ولكن قولي لنا: أين كنتِ يا لولو طوال هذه الشهور؟ لقد بحثنا عنكِ طويلاً مع والدك، ولم نجدك؟!

باختصار، ولكن بثقة وصراحة، روت لنا لولو قصّتها:

كانت الصبيّة التي تفتّحت قبل الأوان، تتردد على أحد الصالونات النسائيّة لتصفيف الشّعر في "السالميّة"، إحدى مناطق مدينة الكويت، حيث كانت العائلة تسكن، عندما وقعت في حبّ فادي، الشّاب الذي ظلّت تحرص في كلّ مرّة على أن يتولّى هو، ولا أحد سواه، تصفيف شعرها.

في البدء أعجبتها وسامته. ثمّ أصبحتْ تحبّ حديثه ونظراته المختلفة إليها. ترحيبه الزائد واهتمامه غير العادي بجمالها. أصبحت تُفرط في تصفيف شعرها وقصّه، لا لشئ سوى لكي تراه.

ابتسم فادي موافقاً، عندما قالت إنها هي الأخرى وقعت في قلبه، فبادلها الحبّ بحبّ، والعشق بالعشق، والشّغف بالشّغف. ثمّ تطور الأمر

إلى علاقة يوميّة. وأوضحت بجرأة أدهشتنا أن هذه العلاقة اليوميّة بلغت أقصي حدودها. مضيفة بصراحة لافتة، إنها كانت تذهب إلى شقّته. ترتدي منامته. يطبخان معاً. وتنام القيلولة على سريره. حتّى اكتشفت لولو مُصادفة أن فادي ماروني، ينتمي إلى الطائفة التي تخوض ميليشيات أحزابها حرباً مع الفلسطينيين في لبنان.

لم تعنيهما مسائل الحرب. قالت إن للمتقاتلين معاركهم الخاسرة، أمّا هما فلهما معركتهما التي سيربحانها في النهاية، مهما واجها من صعوبات. وقد انتهيا إلى اتخاذ قرارهما الشُّجاع بأن ينتصر الحبّ لديهما على الحرب.

ومع يقينها بأن أهلها سيرفضون زواجها من شاب غريب، على الأقل لأنه مَحْكيّ بشأنها من طرف أقارب لوالدتها. فما بالك أن يكون هذا الغريب مسيحياً.. وكيف إذا كان مارونيّاً. سيقول والدها: الله أعلم إن كان ينتمي إلى "الكتائب" أو "الوطنيين الأحرار" اللذين تحالفا على ذبح شعبنا في تل الزّعتر!

هكذا اتفقت مع فادي على الزواج. رتّبا معاً أمور سفرهما إلى لبنان. ومنها سافرا إلى قبرص لعقد قرانهما المدني هناك، وقضاء شهر العسل.

يومها، اكتفت بأن تكتب لأهلها رسالة قصيرة تقول فيها إنها مسافرة إلى لبنان: لأن أحلامها كلّها هناك! هكذا قالت بالحرف الواحد. وأنهت لولو قصّتها بالقول:

ـ الآن نحن نعيش حياة سعيدة. فادي فتح صالوناً للسيدات في "الزلقا". علّمني الصنعة.. ونحن منسجمان معاً في حياتنا وعملنا.. وفي بيتنا الذي بدأناه بفرشة على الأرض، وراقبناه وهو يكبر ويتأثث معنا كلّ يوم.

ثم أضافت ضاحكة:

ـ .. ولولا القذائف التي تأتينا من طرفكم، لكنّا أكثر سعادة!

كنا ساهمين، مأخوذين بقصّتها، وبأحلامها التي تحققت. غير أنني كنتُ مصرّاً على أن أفتح الغرفة الأخيرة وأكسر مغاليقها، فأطرح عليها السؤال الذي ظلّ يُشغلني:

- إذن فأنتِ لم تذهبي إلى أيّ تنظيم فلسطيني؟!

لقد احتاجت لولو إلى وقت طويلٍ لكيّ تردّ على السؤال بسؤال:

- أي تنظيم؟! لماذا أذهب إلى تنظيم. أنا لم أعرف أي تنظيم طوال حياتي، ولا أعتقد أنني سأكون مضطرة لذلك!

سألتها زوجتي عن كيفيّة عثورها على عنواننا.

قالت إنها، بعد عودتها من قبرص، شعرت أن الوضع بات مناسباً لكي تفاتح أهلها بموضوع فادي، وتكشف لهم سرّ زواجها منه. كتبت لهم بالتفصيل، فجاء الردّ من أمها أن والدها سافر إلى بيروت، عاقداً العزم على عدم العودة إلاّ بصحبتها. لكنه لم يعد حتّى الآن. لتُنهي لولو حديثها بالقول:

- وقد زودتني بعنوانكما، قائلة إنه لن يكون بمقدوري العثور عليه دون مساعدتكما.

ومن المفارقة أن نكتشف، ونحن نحدد التاريخ الدقيق للأيّام السّبعة التي قضاها والدها معنا هنا، والتي كرّسنا ساعاتها بكلّ دقائقها البليدة للبحث عنها بلا كلل، كانت هي نفسها، تعيش أسبوع عسلها في قبرص.. التي سافرت إليها برفقة فتاها، في مركب صغير من ميناء "جونية"، لتكتب عقدها المدني، وتشاكس الماء هناك.. عروساً على شاطئ بحر "أيانابا" ورماله الذهبيّة.

ثمّ ردّدت على مسمعي عبارة بدت لي أنها مرّت عليّ من قبل:

- آمل أنني سوف أجد والدي على يديك؟!

***

مع شقشقة فجر اليوم التالي، كنا ثلاثتنا، لولو وزوجتي وأنا، ننطلق بسيارتنا بمحاذاة البحر الممتد على الطريق إلى الجنوب. وقد آثرنا أن لا يرافقنا فادي كي لا يخلق لنا وجوده مشاكل على الحواجز، نحن في غنى عنها.

وصلنا الميناء مع ساعات الصباح الأولى..

كنّا نأمل أن تشاء المصادفة بأن يكون "عبد الباسط" هناك، لنتوجّه بسؤالنا مباشرة لربانه العجوز النشط سطوحي، سائلينه عن تلك الرِّحلة التي أبحر فيها بعبد الباسط إلى الإسكندرية أوائل آب الماضي، وإذا ما كان يتذكرها، ويتذكر عجوزاً أوصيته به خيراً!؟

لكن وجود مركب آخر هناك، لا يقل بؤساً عن شريكه في البحر، عبد الباسط، خيّب أملنا وأجهض حلم لولو.

بحثنا عن ربّان المركب لنسأله عن رحلة "عبد الباسط"، فوجدناه يتناول إفطاره في مطعم قريب.

قال لنا الرجل، وهو يواصل تناول طعامه، إنه يعرف "عبد الباسط" تمام المعرفة.. فهو في البحر من عُمر المركب، ويعرف سطوحي أيضاً، الله يسهِّل طريقه أينما كان. وكلّ ما يعرفه عن تلك الرحلة، هو أنها لم تصل إلى الإسكندرية حتى يوم مغادرته لها، قبل خمسة أيام.

طرح علينا الرجل بدوره إن كان لنا قريب أو حبيب على ظهر "عبد الباسط" في تلك الرِّحلة. فقالت لولو:

ـ أنا لي حبيب كان هناك.. على ظهر المركب!

قال الرجل موجهاً حديثه للفتاة:

ـ هوِّني عليك يا ابنتي. أدعو الله أن يطمئنك على أحبابك!

شكرتُه على نبل دعوته، وقلتُ له إننا على استعداد لأن نتقبّل أمر الله إذا كان لديه ما يفيد بمصير المركب وركابه. وقد جئنا إلى هنا من بيروت

ونحن مهيأين لسماع كلّ الأخبار، مهما كانت فاجعة لا سمح الله، وذلك خيرٌ لنا من أن نكون كالتائه في عرض البحر دون بوصلة أو دليل، محاصر بالماء، لا يعلم أين هو، ولا يدري أي شئ عن مصيره!

لم يجد العجوز مفراً من الإفصاح عمّا لديه من كلام، قال:

ـ في الحقيقة، هناك روايات كثيرة حول مصير "عبد الباسط". البعض يقول إن المركب تاه في عرض الماء. لكن مَنْ مِثل سطوحي لا تخدعه دروب البحر، فهو يستطيع أن يقطع الطريق بين إسكندرية وبيروت وصيدا وصور وطرابلس دون أن يحتاج إلى بوصلة، ومن غير أن يضطر حتّى لأن يفتح عينيه.

.. وهناك من يقول إن المركب تعطّل في عرض البحر، دون أن يجد مركباً آخر عابراً يُقدِّم له المساعدة. فالمراكب قليلة هذه الأيام، والبحر ليس آمناً. وقد أعيى ركابه المرض وبرد الليل والجوع، فلقوا، الواحد تلو الآخر، ما أراده الله لهم وكتبه في لوح محفوظ. غير أن الشهور مرّت ولم يظهر أي أثر للمركب، لا في البرِّ ولا في البَحر، ما يُسهم في نفي هذه الفرضيّة.

.. ولم يبق لنا، أضاف العجوز، إلاّ الاحتمال الأخير، وهو أن يكون المركب قد وقع في أيدي الدوريات الإسرائيليّة التي تجوب البحر، مثل القراصنة الذين نراهم في أفلام السينما. فإن كان الأمر كذلك، فسوف يقودون المركب إلى شواطئ يافا وحيفا أو ميناء أسدود، يُخضعون الركّاب للاستجواب، يعتقلون منهم من هو مطلوب لديهم. ولا شكّ في أنهم سيُطلقون سراح غير المطلوبين وكبار السنّ:

ـ وهل حبيبكم الذي ذهب مع "عبد الباسط" كبير السنّ؟!

تساءل الرجل. فكدتُ أردّ بالإيجاب. غير أن صوت لولو سبقني وهي تقول:

ـ لا.. إنه شابّ.. شابّ في عزّ شبابه.

الفتاة الحنطيّة، بمسحة الجمال الغجريّ الذي بدا وحشيّاً أكثر من أيّ وقتٍ مضى..

الفتاة التي ازدادت عيناها سوداً ولمعاناً..

وازداد شعرها تمرداً..

وصوتها ثقة،

الفتاة الجريئة، التي تمتلك شفافيّة الماء ووضوح الشّمس، التي أحبّت فادي الماروني وتركت رمال الكويت الذهبيّة من أجله، مع أنها كسرت قلب أهلها.

الفتاة الجريئة التي لم تنتمِ يوماً لتنظيم فلسطيني في الكويت، ولم تمارس الكفاح المُسلّح، ولم تعرف يوماً همّ السياسة، قالت جملتها الأخيرة وهي تتطلّع إلينا:

ـ كلّ الاحتمالات واردة، لكنني أتمنى أن لا يكون أبي قد ذهب مع الإحتمال الأخير!

(7)

اليوم الخامس

الفِرقة الموسيقيّة التي كانت هناك، في الفاكهاني، غيّرت، خلال أيام قليلة، إيقاعاتها وألحان موسيقاها.

خرجت الفرقة في اليوم الأول لوداع ضحايا الانفجار المُروِّع الذي دمّر الشارع المقابل لبوابة الجامعة، فأودى بالعشرات بين قتلى وجرحى.

عزفت الفرقة لحناً باكياً، يبثُّ أحزانه المجرّحة، على امتداد الطريق مابين جامع عبد الناصر ومقبرة الشهداء.

في اليوم التالي، كانت الفرقة نفسها تعزف في الملعب البلدي لحناً احتفاليا، وتُعلن أفراحها بعد أن تناهى إليها خبر مَقتل الزعيم فوق المنصّة.

صبيحة اليوم الثالث، رأينا الفرقة، بكلّ طاقمها، وهي تسترجع أحزانها الأولى، في الجنازة المهيبة للقائد الشّهيد، الذي نجا قبل أسابيع قليلة من موت استهدفه بقذيفة مُعادية تحايلت على الأبنية العالية المجاورة واقتحمت مكتبه في الإعلام المُوحّد، لكنها لم تجده هناك. إلاّ أن القنبلة القاتلة كانت تكمن له، بعد وقتٍ قليل، في مكان آخر، تحت السرير، في فندقٍ يقع في شارع "فيا فنيتو" في روما، التي لم يكف يوماً عن عشقها.

في اليوم الرابع، كانت الفرقة الموسيقيّة تُجري تدريباتها، في غرفةٍ بائسة في الفاكهاني. تدندن بآلاتها لحناً غامضاً، لم يلتقط إيقاعه بعد.

وحتى ما بعد ظهيرة ذلك اليوم، لم يكن قد تبيّن لأحدٍ من عازفيها إن كان اللحن الذي يُدندن به ويتهيّأ لعزفه، هولفرحٍ قادم أم لحزن يكمن في الزوايا المريبة!؟

لم يعرف أحد حتّى الآن،

ولن يعرف.

فقبل مغيب الشمس بقليل، سقطت قذيفة في الفاكهاني. تحايلت على الأبنية المجاورة، لتنفجر في غرفة بائسة كانت هناك، فأسكتت صوت موسيقى لم تكن تعرف إلى أين هي ذاهبة بلحنها الأخير، للحزن أم للفرح!

الجنازة التي خرجت في اليوم الخامس من جامع عبد النّاصر إلى مقبرة الشهداء، سارت بسبعة نعوش.

لقد ظلّت الجنازة صامتةً، إذ غاب عنها تماماً.. صوت الموسيقى!

(8)

مكعبات ثلج من أجل فيوليت

كان القصف قد توقّف قبل قليـل، عنـدما داهمنـا قـصف الهـاتف دون توقُّف..

رفعتُ السّماعة بأيـدٍ مُتوجِّسة، بعـد أن أفـرط الجهـاز طـويلاً في رنـين ملحاح يأبى التوقّف دون استجابة.

جاءني صوتها مُنهكاً، متلكئاً، يسيل من أطرافه أنين خافت، فبدت المرأة التي هناك، على الطرف الآخر من الخطّ،، تُعاني آخر سكرات الموت، وتلفظ مع كلماتها المتقطِّعة أنفاسها الأخيرة:

ـ ثلج.. ثلج.. أريد ثلجاً. جسدي نار موقـدة، حرارتـه تبلـغ نهاياتهـا. أكاد أموت.. إسعفوني بمزيد من الثلج!

تساءلتُ:

ـ هل أصابك القصف؟!

ـ لا.. لا.. ولكن أصابتنى حمّى فظيعة. أشعر بأنني سأموت بعـد قليـل لشدّة النيران التي حوّلت بدني إلى جمرٍ متأجج!

وضعتُ سماعة الهاتف، وسمعتُ زوجتي تسأل:

ـ من المُتحدِّث؟

أجبت ببرود لا ينسجم مع حرارة المرأة التي أغلقت الطرف الآخر مـن خطّ الهاتف:

ـ إنها "فيوليت".. تقول إن حرارتها مرتفعة، وإنهـا بحاجـة إلى بعـض المكعبات من الثلج.

ترددتُ بعض الوقت، غـير أن زوجتـي أدانـت تـرددي بنظـرة صـامتة

تنطوي على توبيخ غير مُعلن.

ببطء، أخذتِ أفرّغ مكعبات الثلج في كيس نايلون. وقد لاحظت زوجتي تلكؤي في الحركة، فرأت فيها بلادة لا تنسجم مع حرارة اللحظة الطارئة وما تتطلّبه من سرعة، وعبّرت عن ذلك بعصبيّة مُعلنة هذه المرّة، حيث تناولتْ مني قوالب الثلج التي شرعت تذوب بين أصابعِها المتوتِّرة بعد أن اندفعت إليها دماء عصبيّة تستحثها حميّة بالغة الحرارة. وقد ظلّت تتمتم بغضب:

ـ أعتقد أن الأمر يتطلّب منك استجابة إنسانيّة أفضل من حركتك هذه..

قالت ذلك. فتساءلتُ بيني وبين نفسي: ما الذي كانت ستقوله لو إنني نقلتُ إليها بدقّة حقيقة ما أخبرتني به فيوليت بصوتها الواهن، الممتزج بأنين يقطِّع نياط القلب، عن اقترابها من نهايتها المُفجعة!

كانت زوجتي حديثة الوجود في هذه المدينة، التي تتسلّى يومياً بالقصف المتبادل بين شّرقها وغربها. لم تكن قد عرفتْ فيوليت جيِّداً. إلتقتها مرّتان أو ثلاثة، شكّلت فيها انطباعاً سريعاً عنها بأنها إمرأة هشّة من الداخل، رغم ما تدّعيه من قوّة ظاهريّة، ولكنها في النهاية طيِّبة القلب، سخيّة العواطف.

وإذا كان انطباع زوجتي صحيحاً إلى حدّ كبير، ورأيها ينطوي على شيء من الوجاهة، فإن اعتقادها بأن فيوليت تحبّ العزلة عن البشر، وأنها لا تكذب مُطلقاً، لم يكن دقيقاً على الإطلاق، وظلّ يجافي الصّواب.

عندما حملنا كيس الثلج وهبطنا من العمارة التي نسكنها وتواجه بوابتها سوراً عالياً لقصر قديم تحتضن حديقته شجرة أرز قد تكون الوحيدة في بيروت، لاحظتُ أن زوجتي تُسرِّع خطواتها، وقد رمقتني بنظرة تلومني فيها، وللمرّة العاشرة، على تباطؤ خطواتي، رغم أننا كنّا نسير في طريق حادّ الانحدار. بيد أن صوتها كان أكثر حدّة:

ـ كأنك تمشي في جنازة سلحفاة! فالمرأة تُعاني من حرارة مرتفعة وأنت تتلكأ في إيصال الدواء. يا لبرودك القاتل!

وقفتُ أنتظر سيارة سرفيس، فرمتني زوجتي المستفزّة بنظرة حارقة أخرى، رأيتُ فيها اتهاماً صاعقاً بالبخل، إلى جانب انعدام الحسّ الإنساني:

ـ المسألة تستحق توقيف تكسي قبل ذوبان الثلج وضياعه هباء، والذي يعني ضياع المرأة نفسها.

وكان عليّ أن أذعن للاقتراح، رغم عدم اقتناعي لا بفكرة التكسي فحسب، وإنما بفكرة الإستجابة من أساسها.. وحمل الثلج إلى فيوليت.

***

عندما قرعنا جرس بيتها، فتح لنا الباب شاب يحمل في يده كأساً من الويسكي. سألناه عن فيوليت، فقال إنها في سريرها.

رأيناها عن بُعد خطوات. كانت تتمدّد في السرير، فيما جمع من أصدقائها، رجالاً ونساءً، ومن جنسيات مختلفة تعجّ بها مدينة تعيش زمن الحرب، يلتفون حولها، وقد تعالت أصواتهم وهم يتحدّثون بلغات مُتعددة. كلّ واحد منهم كان يحمل كأسه بيده. وقد أدهشني أن يتسع بيتها الصغير لكلّ هذا الحشد الكبير من البشر.

التفتَتْ زوجتي نحو فيوليت وهي تتمتم مستفسرة عن حالها. ودون كلام، سألتها زوجتي بالإشارة عمّا تفعله بكيس الثلج الذي جلبناه معنا. فتمتمت المرأة المستلقية على السرير بأنها باتت تشعر بتحسُّن، وإن علينا أن نضع كيس الثلج في الثلاجة.

ما أن فتحت زوجتي باب الثلاجة، حتّى تدفّقت عليها أكياس الثلج..

وقعت الأكياس تباعاً من الفريزر والرفوف، وأخذت تتساقط عن ظهر الثلاجة الذي تراكمت فوقه الأكياس، فانتشرت مكعباتها في أرجاء المطبخ مُحدثة صوت تكسُّر ناعم. ما أربك المرأة القادمة حديثاً إلى مدينة تعيش زمن

الحرب.

من بعيد، طلبتْ منها فيوليت أن لا تشغل بالها في أكياس الثلج المتساقطة والمكعبات المتناثرة على الأرض.. فهناك الكثير منها، في الحمّام وتحت السرير وخزانة الملابس. وأضافت بأن عدداً من الأصدقاء الآخرين سوف يأتون بعد قليل جالبين معهم المزيد من مكعبات الثلج. ولكي تُغيِّر الموضوع قالت بأن علينا أن نخدم أنفسنا ونصبّ كأسينا. ثمّ رفعت لنا كأسها في إشارة إلى أنها ستشرب نخبنا. ورفعت صوتها لتضيف:

ـ هناك زجاجة ويسكي على طاولة المطبخ.

فعلنا كما أشارت إلينا فيوليت.

وقد اندهشتُ للمرّة الثانية وأنا أرى أن الأصحاب يواصلون صبّ السّائل السحري من الزجاجة نفسها دون أن تنتهي، أو يتناقص محتواها!

***

لم ينقطع تدفُّق الأصدقاء طوال الليل، حاملين معهم أكياساً مختلفة الأحجام والألوان تحتوي على كميات من مكعبات الثلج.

في تلك الليلة، سهرنا حتّى الصباح.

تبادلنا الأنخاب مع بشر مختلفي الألوان..

تحدثنا لغات لا نتقنها، أو نعرف منها كلمة!

لم تكن ليلة هادئة في الخارج. فقد ظلّت تتردد في أطرافها أصوات قذائف متقطِّعة. أمّا في الداخل، فقد استمرّ قصف الشّراب دون توقُّف، وكانت لغات المتحدثين من الحاضرين تتداخل بعضها في الأخرى، بحيث تضيع معالم كلّ لغة وتختلط مع أصوات القذائف الصاعدة والهابطة.

غادرنا في ساعات الصباح الأولى.

تسرّبنا في لحظة توقّف فيها القصف ونحن مطمئنين إلى أن كميات الثلج التي تدفّقت على فيوليت في تلك الليلة، قد وضعت حدّاً لحرارة

جسدها المتوقد، وأن ما تبقّى منها ولم يذُب في الكؤوس المسفوحة، ذاب على رفوف الثلاجة، والدولاب، وتحت السّرير. ومعها ذاب تماماً شعور فيوليت الممضّ بالوحدة!

***

ما أن وصلنا البيت، حتّى كان القصف قد تجدّد بضراوة لم تشهد له المدينة مثيلاً من قبل، فسلبت أصوات القذائف طمأنينتنا وبدّدت تأثير ما احتسيناه طوال السّهرة، ما حال دوننا والنوم، حتّى انتبهنا إلى شعاع الشّمس يملأ مساحات بيتٍ نجا مصادفة من سقوط قذيفة عشوائيّة.

غير أن الظهيرة جاءتنا بهدوء نسبيّ أتاح لنا أن نختلس إغفاءة كان مقدّراً لها أن تطول يوماً أو بعض يوم. غير أن قصف الهاتف داهمنا بحدّة، وبإلحاح مُفرط يأبى التوقُّف. وكنتُ في لحظة التأرجح بين اليقظة والمنام، على يقين راسخ بأن الرنين المتواصل لا يمكن إلاّ أن يكون وراءه سوى فيوليت!

رفعتُ سماعة الهاتف بأيدٍ بدت أكثر تُوجُّساً، لكن صوت الرجل الذي سمعته على الطرف الآخر خيّب توقعي.

تساءل الصوت بلغة جافّة:

ـ هل كنت وزوجتك ضمن الساهرين عند فيوليت في بيتها الواقع في "مار الياس" الليلة الماضية؟!

أجبت:

ـ نعم، نعم، كنّا هناك.

ثمّ أضفت متسائلاً ومستنكراً سؤاله:

ـ ولكن، من أنت.. ولماذا تسأل؟!

قال الرجل بلهجة محايدة يغلّفها برود مُفتعل:

ـ لا.. لا شيء، فقط نريد سماع أقوالكما في مركز درك السيّار في

"الفردان".

ولأنني لا أحبّ سيرة الشُّرطة والدّرك والأقسام ومراكز الأمن مُطلقـاً، فهي تؤجج مخاوفي وهواجسي وتبعث في بدني قشعريرة في عزّ الصّيف، فقـد وجدتُ نفسي أصرخ:

ـ ماذا حدث؟!

أجاب دون أن يتنازل عن بروده:

ـ لقد وُجِدَت جثّة فيوليت ممدّدة على سريرها في شقتها. القذائف طالت العمارة التي تسكنها.. دمّرت عدداً من الـشقق فيهـا وأصـابت العديـد مـن جيرانها. شقتها لم تُصب. التشريح أفاد بأن الوفاة حدثت في الـصباح.. بعـد خروجكم من بيتهـا. وهـي لم تـنجم عـن إصـابة جـرّاء القـصف، ولكنهـا نجمت عن صقيعٍ أصاب أطراف المرحومة، وجمّد دمها في العروق!

عندما انتبه الرّجل إلى أنه ظلّ يواصل حديثه دون أن تصدر مـن جهتـي ردّة فعل حول ما حدث، سمعته يقول:

ـ لا نريد إزعـاجكما، ولكننـا فقـط، نرغـب في طـرح بعـض الأسـئلة، والاستفسار عن كميّة الثلج التي جلبتموها لها ليلة الأمس. فالتشريح أثبت أن فيوليت ماتت من شدّة البَرْد!؟

(9)

رسالته الأولى والأخيرة

عندما سافرت زوجته في زيارتها الأخيرة لأحبابها المقيمين خارج مدينة لم تتوقّفّ فيها الاشتباكات بين المتقاتلين، والقذائف عن دويّها المرعب، والرصاص عن التسكُّع في الفضاء المستباح.

وبعد أن طالت غيبة المرأة أكثر مما ينبغي، شعر الرّجل العجوز بحالة غريبة تجتاح كيانه، ظلّ يؤجِّجها الشّوق إلى امرأة بلغت سنواتها معاً الخمسين عاماً أو ما يزيد. ولقد أيقن الرّجل، يقين عاشق مُتيّم يخوض تجربة قلبه البكر، أنه واقع في حالة حبّ لا فكاك منها، ولا رادّ لسطوتها عليه!

شعر العجوز بأن جدران البيت أوحشت دون أنفاس امرأة قلبه..

تكثّف الهواء السّاكت في الزوايا وضجّت الجدران بالغياب.

تحوّل البيت إلى مكانٍ كئيب.

اضطرب قلبه والزجاج الصقيل. وظلّت أطرافه ترتجف إذا ما مرّ خيالها في المرايا المُعتمة..

كان شوقه يتضاعف إليها كلما اشتد القصف أو انقطع التيار الكهربائي، فيتوق إلى صدرها كطفلٍ صغير تخلّت عنه أمّه.

***

الزّمن يمرّ بطيئاً، بليداً، والوقت يبدو نزقاً، مثل أوقات العشّاق المتعجِّلين لحظة اللقاء.. العشّاق المصلوبين على رصيف الانتظار، تتداولهم الوجوه العابرة وتتصفّح كتابهم المفتوح الذي يُعرّي قلوبهم أكثر مما هي عارية.

تستعيد أغنيات أم كلثوم إيقاعها الذي غاب عنها طويلاً. تدور اسطواناتها السوداء في الغرامافون لتقاوم الزّمن والغبار وزخّات رصاص

يتبادلها مقاتلون ضجرون.

يتذكّر العجوز أيّامه الخوالي التي جمع فيها أغنيات القلب الملوّع بأناة وهدوء بال. جمعها واحدة واحدة، أيّام كانت تفعل فعلها في روحه الخضراء. وها هي السِّتّ تعيد الروح في روحه. يُجرِّح صوتها القلب والخطى المتعبة وأصص الورد الذابل على شبّاك المطبخ.

قلبه الذي يخفق أوجاعاً، يحسّه الآن، في ليالي الصيف والقصف هذه، بأقمارها المُدوّرة، فتيّاً ونابضاً بالنجوم. وعندما يتعب المتقاتلون ويذهبون إلى النوم قليلاً، يُعيد قراءة أشعار نزار، وبعض مجانين العشق الذين ماتوا حُبّاً.

يسترجع في نفسه مشهد الشمس عند البحر في الأصيل، فكأنما يستعيد كنزاً كان مفقوداً منذ زمن طويل.. كان يبثّه ذهباً وألقاً وفضّة. وهو لا يكفّ عن أن يبثُّ الغسق البرتقالي تباريحه.

من دونها يشعر أنه لا شيء..

لا شيء.

وأنه كيان غير مهيّأ إلاّ للهزيمة..

بيد أن أكثر ما ظلّ يُقلقه في غيابها، رغم المعارك التي لا تهدأ في الخارج، هي تلك الحرب الضروس التي تنشب في اليوم الواحد عشرات المرّات، بين أظافره التي قلّمتها له قبل السّفر، وبين النمل الذي يدبّ تحت الجلد في عروق الظهر المحدودب، يلحّ عليه بالحكاك.

مِنْ دونك..

كتب لها العجوز الثمانيني الذي يعاني وحدته، في رسالة كانت الأولى التي يكتبها لها في حياته، والتي لم تصلها إلاّ بعد موته الفجائي وحيداً، وبرصاصة طائشة استقرّت في رأسة وهو يتنقّل بين الشُّرفة والشبّاك منتظراً إطلالتها التي أحسّها بمشاعر لا تخيب:

ـ.. "من دونك، أضطرُّ لأن أخوض عشرات المعارك الخاسرة في كلّ

يوم. وأجهش في البكاء، عشرات المرّات في اليوم، كلما رأيتّ أظافري المُقلّمة وهي ترفع راياتها البيضاء، لتُعلن عجزها عن حكّ ظهري"!

***

لحظة عودتها، كان أوّل ما وقعت عليه نظراتها عندما فتحت الباب، جثّته الهامدة التي تكوّمت هناك، بين الشّرفة والنافذة، تتخبّط بدم دافق بدا لأصابعها المتسائلة المفجوعة، حاراً ولا يتوقّف عن النّزف.

احتضنته وهي تجهش في البكاء.

كان يحدِّق إليها بعينين لم تعودا تقويان على النظر، ومن بين مطر الدُّموع، رأت طيف ابتسامة ما برحت ترتسم على شفتيه!

***

في ما تبقى لها من عُمر، ظلّت المرأة تقضي أوقاتها المتلكئة في الوصول إلى محطتها الأخيرة، وهي تقرأ رسالته الأولى التي وصلتها منه أخيراً.. بعد طول انتظار.

وكم بكت وهي تُصغي إلى الجدران التي ظلّت تئن حسرة، على عاشقٍ كان يلتجئ إليها محاولاً طرد أسراب نمل وهميّ تغزو ظهره الذي احدودب في غفلة من الزمن، وعلى عمرها الذي ضاع سدى، دون أن يقول لها رجل قلبها، على امتداد أيّامها وساعاتها الطويلة ولياليها معاً، وطوال أعوامها التي فاقت الخمسين، ما قالته رسالته الأولى.. والأخيرة!

(10)

الرجل ذو السروال الداخلي الأحمر

عندما دوى الانفجار، هيمن الفزعِ على الجزء الغربيّ من المدينة. عمّ الرُّعب على الكائنات. وفي هنيهة خاطفة، تساقط زجاج الأبنية كزخّات من كرات بلّوريّة متكسِّرة.

تمزّقت أصوات الباعة.

إمّحى وقع أقدام المارّة.

تلاشت الأغاني في المذياع ومسجلات الصّوت.

تفجّر الدّم غزيراً.

تناثرت الجثث على الأسفلت والأرصفة، وظلّ الموت يصول بين الأرض والسماء، ليستولي بسطوته على الفضاء.

الصبيّة التي كانت هناك، وجَدَتْ نفسها تطير في الهواء العابق برائحة البارود، ثمّ تعود بقوّة لترتطم بالأرض.

***

كانت ناحلة العود، بعينين واسعتين، رأت من خلالهما، في الغبش الرمادي الذي صنعه دخان الانفجار، سيارات تحترق، وبشراً يهرعون نحو هدفٍ مجهول، بدوا أمام عينينها المستسلمتين لذبولٍ مُباغت، وكأنهم يتحرّكون في ضجيج يوم الحشر، سكارى وما هم بسكارى!

كانت تتمدّد فوق الرصيف. ألقتها قوّة السقوط على ظهرها. بدت عاجزة تماماً، تتأرجح بين اليقظة الرجراجة وسطوة غيبوبة كأنها منام كهفيّ يشدُّها إليه عنوة.

حاولتْ النهوض، فخانها جسْدها. حاولت أن تصرخ، فخانها صوتها.

حاولت أن تفهم، فخانها ذهنها المشهود بتوقده.

"إنها لحظة النهايات"!

قالت لنفسها، ثمّ استجابت لما يشبه الموت..

تأتيها الأصوات متداخلة، أصواتٌ متشققة، يصدر عنها أنين أسيان ينزف على الأرض ويسيل في الشوارع. تنسرب إليها أصوات متوتّرة، مشروخة، تتردّد كما الأرواح الهائمة في الفضاء، باحثة عن مُستقرٍ لها. استغاثات واهنة. سيارات إسعاف، وربما إطفائيّة. أصوات صليات كلاشينكوف تُطلق نيرانها في الهواء دون هدف مُحدّد، متوجهة نحو شيء مجهول.

في المساحة المشوّشة، المُرتبكة، الملتبسة بين اليقظة والمنام، سمعتْ رجلاً يقول لزميله، وخالته يشير نحوها:

ـ هناك جثّة على الرصيف.. تعال نضعها في سيّارة الإسعاف!

لاح لها شبح رجلٍ يتحرّك في غبش عينيها الذاويتين. رأته يتقدم نحوها. بدا لها عارياً تماماً، إلاّ من قطعة ملابس داخليّة سُفليّة متضائلة مصبوغة باللون الأحمر. وكان يضع على كتفه العاري سلاح الكلاشنكوف!

تساءلتْ في نفسها: لماذا يرتدي رجلٌ سروالاً داخليّاً أحمر اللون ويتحرّك في هذا الجحيم بهذا الشكل؟!

هل كان يمارس الحبّ في هذا الصباح، عندما انتزعه الانفجار من أحضان امرأة وقذف به إلى الشارع؟!.

خطر في بالها أن تُساءل نفسها إن كانت تنتمي في هذه اللحظة للموت أم إلى الحياة!؟ غير أن حالتها الذهنيّة المشوّشة، التي تشبه الحركة العشوائيّة في ساحة الانفجار، لم تسمح لها بالإجابة.

كانت تسأل أسئلتها المرتبكة وتعود لتغرق في غيبوبتها، قبل أن تأتيها الإجابة بأنها لا تعرف.. فهي لم تذهب إلى الموت من قبل!

أحسّت بقبضتيّ الرجل تلتقطانها. ضمها إليه بشدّة، فاشتمّت في جسده رائحة مني طازجة، وخُيِّل إليها أنه يهتف لزميله من مكانٍ ينأى بعيداً عن المكان:

ـ أشعر أن فيها رمقا من حياة!

أجابه زميله بلهجة عمليّة تخلو من العواطف، فبدا لها صوته وكأنه آتٍ من جبلٍ مقابل:

ـ ضعها في "الأمبلنس". هناك، في المستشفى سيفرزونهم، يأخذون الجرحى إلى العلاج.. و يذهبون بالموتى إلى البرّاد.

بعد جهدٍ ذهني مُرهق، إستطاعت مُجدّداً أن تصوغ السؤال الجوهريّ، بينها وبين نفسها الضائعة، في تهويماتٍ لا تنتهي: هل أنا في الموت، أم إنني ما زلُت أنتمي إلى عالم الأحياء؟!

***

أطلق الرجل ذو السروال الداخليّ الأحمر صليّة من كلاشينكوفه في الهواء، ثمّ، وبكلّ قوّته، قذف بالصّبيّة إلى مؤخرة سيارة الإسعاف، وكانت رائحة الدم والمني ما زالت عالقة في جسدها.

ألقى بها فوق جثث تفتقد أنفاسها إلى الحرارة، وأخرى تئن بإيقاعٍ رتيب..

كانت تستشعر طراوة اللحم البشريّ تحتها.

بعد وقتٍ قصير، أحسّت بجسد امرأة سمينة يُلقى فوقها دون مقدِّمات. شعرتْ بثقل كتلة اللحم الوارفة فوق جسدها، لكنها لم تكن تمتلك القدرة على زحزحتها. فلم يكن أمامها، سوى أن تحتمل الأمر باستسلام.

أغلقَ الرجل ذو الكلاشينكوف والسروال الداخليّ الأحمر باب سيارة الإسعاف بعنف، ثمّ أطلق زخّة من الرصاص في الفضاء، لتنطلق العجلات

بسرعة جنونيّة، مع بوقها التحذيري، في شوارع متوتِّرة أفسحت لها الطريق.

شعرتْ بحرارة الدم الدافق تتسلل إلى أطرافها وتستولي عليها، فأيقنت، وهي بين الأجساد والجثث المتكدِّسة، أنها ربما أصبحت في عداد الموتى، أو تكاد!

حاولت أن تردِّد الشهادتين،

غير أن البداية فرّت منها، فأدركت حال النهاية.

قرّرت أن تستجيب بدِعةٍ للحظة الموت الشاحبة التي باتت تلفها وتهيمن عليها بشكلٍ لا رادّ له، كأنما هي تقف قاب قوسين أو أدنى من تخوم هازم اللذّات ومُفرِّق الجماعات.

عندما بلغت سيارة الإسعاف باحة المستشفى، كانت غالبيّة الأرواح التي تغصّ في جوفها مطمئنة، فيما بدت الأخرى تطوف باحثة عن مستقرٍ لها.

فتحوا الباب الخلفيّ للسيارة البيضاء، فمسّها اعتقادٌ مباغت بأن الدّم الحار الذي أغرقها، إنما تسلل إليها من الفيض الدموي للمرأة البدينة التي توقفت أنفاسها قبل قليل.

فجأة، ومضت في رأسها فكرة أن الموت يبدأ من لحظة الاستجابة للموت، فقررت الهروب!

***

أمام مستشفى البربير، كان الناس يتجمهرون ليراقبوا الجثامين التي يخرجها الرجال من سيارات الإسعاف. وعندما سحب الممرضون جثة السيِّدة البدينة من فوق ركام الجثث، رأوا امرأة ناحلة، غارقة بالدم، عيناها جاحظتان، بدتا أكثر اتساعاً لشدّة الذهول. كانت تنتفض بقوّة. تنفض عن نفسها الدّم فيرشق مَنْ حولها بفراشات حمراء تفرّ من جسدها، تلمس عيونهم، ثمّ تتطاير في الفضاء.

غافلتهم بلحظة خاطفة، لتنطلق مثل سهم، راكضة بهلع في شوارع أصابها مسّ شيطانيّ.

لم يكن يشغل بال الصبيّة الناحلة آنذاك، وهي تجري بثيابها الحمراء، سوى سؤال نفسها عمّا كان عليه لون فستانها في الصباح، قبل أن يتحوَّل إلى هذا اللون القاني. غير أنها لم تهتد إلى جواب!

ظلّت تُفكِّر في الأمر وهي تواصل ركضها بقدمين تستحثّهما رغبة بالانعتاق. ودون أن تلتفت إلى الوراء، رأت بعينِ قلبها، شبح الموت يجري خلفها على الإسفلت.

كان يرتدي سروالاً داخلياً بلونٍ أحمر، ويتشبّث بقبضته بالكلاشينكوف خوفاً من السقوط.

داهمها خوف مُباغت، عندما أحسّت بعجزها عن طرد فكرة تسلطت عليها، رأت فيها أن الدّم الذي أغرقها كان نزفها هي وليس دم المرأة البدينة، فازدادت رُعباً. وسمعت صوت قلبها يقرع مثل طبولٍ بدائيّة.

كان الناس يتوقفون على الأرصفة، يتابعون بعيونٍ ذاهلة صبيّة ناحلة مدمّاة، بدت مخبولة وهي تجرى بثوبها الأحمر النّاريّ، تتلفّت خلفها بين الفينة والأخرى، برُعب وهلع، دون أن يروا أحداً يلاحقها!

(11)

موت بائع السبانخ العجوز

رأيتُ بائع السبانخ العجوز وهو يتكوّم على نفسه..
كان يحتضن جرحه القاتل،
يغفو قرب عجلات عربته التي مزّقها الانفجار.
حدث ذلك بعد دقائق من شرائي أضمومتين خضراوين لامعتين من السبانخ، وضعهما لي في كيسٍ أسود كبير.
ظلّ المشهد يلاحقني طوال أسبوع. لم أنس فيه الرّجل أبداً، لكنني كنت قد نسيت ضمتّي السبانخ.
هرعت إلى المكان الذي وضعت فيه الكيس، في الخزانة الخشبيّة، تحت حوض المطبخ.
عندما فتحت الخزانة المغلقة منذ أسبوع، هاجمتني رائحة نفّاذة!
كانت رائحة جثّة بشريّة متفسِّخة، خمّنت أنها قد تكون للعجوز.. الذي باعني السبانخ قبل دقيقة من الانفجار، ثم مات.

(12)

نجمة صغيرة مُتلألئة

غفا وفي حلقه طعم القطرة الأخيرة من زجاجة العرق. الزجاجة نفسها التي أسعده امتلاؤها في أوّل الليل. ورغم أن فراغها كان قد ملأه نشوة كاذبة سرى دبيبها في العروق، إلاّ أنه أحسّ، وهو يغرق في تأمُّل الفراغ الذي تحتويه الزجاجة، بشيء من الوحدة والفراغ الداخلي الرّهيب.

" نهاية موحشة لليل طويل"،

قال في نفسه.

بدأ المساء بقذائف عشوائيّة تفرّ من تحت النافذة العالية، لتحجب عنه زُرقة البحر وخضرة أشجار الصنوبر.

السرعة المجنونة للقذائف ظلّت تُسابق شهوة الموت، فلا تتيح له فرصة الإنصات إلى صفيرها الذي لا يُشبهه صفير، أو تأمُّل ذلك الرفيف المتهوِّر الذي لا يعرف أحد من أين جاء ولا إلى أين هو ذاهب.. ليتبعه دويّ انفجار لا يدري أين وقع؟!

أين سقطت القذيفة؟

يتساءل:

"في بيت جيرانك، أم بالقرب من هدوء منامك؟ أو ربما تطايرت شظاياها مع قطع الإسمنت التي مزقها الإنفجار، لتستقرّ في صحنك الهادئ، المهيّأ لعشائك"؟!

***

مع العتمة، اشتدت كثافة القصف.

تساقطت القذائف غزيرة في محيط البيت، فأثارت في نفسه الفزع. ولم

يجد إلاّ أن يفعل ما يفعله دائماً، كلما تمادت القذائف في السماء المفتوحة للقصف والقصف المضاد، إذ يهرع إلى خزانة المطبخ لينتزع الزجاجة من مكانها، ثم يهرول مرّة أخرى ليجيء بالكأس الصغيرة وزجاجة الماء ودورق الثلج.

ها هو يجلس وحيداً في الممر الواصل بين المطبخ وغرفة النوم، والذي ظلّ يتوهّم طويلاً أنه مُحصّن ضدّ الموت وكلّ أنواع القذائف وزخّات الرّصاص، ثم يشرع في كرع الكأس تلو الأخرى.

مفعول الزجاجة اللعينة يُعطي لأصوات القذائف إيقاعاً خاصّاً ظلّ قادراً على تبديد وحشته شيئاً فشيئاً، وتحريضه على مغادرة الجدران الخانقة التي تتدانى في الممر الضيِّق بين المطبخ وغرفة النوم.

بعد الكأس الرابعة، أو الخامسة، لا يدري، بات ينتظر صوت القذائف إذا ما توقفت قليلاً عن الإنهمار. فعندما تتوقّف الأصوات، كان يشعر بأنه وحيد، متروك، في المساحة الضيّقة المحاصرة بين جدارين. وكان طعم العرق يتحوّل على لسانه إلى المرارة.. مفتقداً الروائح التي يحبها في الشراب الأبيض اللذيذ.

وعندما يداهمه الليل باشتعال مفاجئ للمعارك البعيدة والقريبة، كان العرق يستعيد طعمه على اللسان، وسحره في الرأس والقلب والعروق. وكانت رائحته تستعيد ذاتها السليبة في رئتيه. وكلّ الأشياء من حوله، وفي داخله، كانت تسترجع بهجتها المفقودة ورونقها المغيّب مع غياب الأصوات.

هو يعرف أنه لا يدخل منطقة النشوة، ولا يعرف قلبه أيّ معنى للشجاعة، إلاّ عندما يُصبح عاجزاً عن معرفة عدد الكؤوس التي شربها. وبعد أن يفشل في العدّ تماماً، أو تحديد الرّقم بدقّة، وتضيع كلّ تخميناته هباء، فإنه يوقن أن دخوله حالة السُّكر بات مؤكداً، ويُعلن استسلامه،

بعينين مكسورتين تتأرجح جفونهما بتكاسل الخَدَر، بأنه غادر عالم الصحو، وأنه قد وقع، بإرادته الحرّة، تحت سطوة سُلطان الشّراب.

***

ها هو يدخل، إذاً، منطقة النشوة..

وها هو القلب الشجاع يقذف به من الممر إلى شُرفته المُطلّة على المنطقة التي تنطلق منها القذائف، فيكون بمقدوره أن يسرح بنظره في المدى، ليرى التماعاتها قبل وقت قليل من سماع دويّها.

لكن صمت الليل سرعان ما هيمن على المكان.

غابت التماعات القذائف عن الأفق، وامتصّ المدى صوتها المدوي. أحسّ بالكدر وضيق الصّدر.

"فماذا أفعل دون قذائف"؟!

ماذا يفعل سوى الإيغال في العرق حتّى آخر الليل، وآخر الشّراب؟!

***

عندما فرَغَتْ الزجاجة من قطرتها الأخيرة، لذّتها التي في القعر، كان الليل قد ذاب في السّائل الأبيض والصمت القاتل، وكان هو قد اتخذ، بينه وبين نفسه، قراره التحوُّلي الخطير:

" سوف أشارك في حرب القذائف"!

سنوات طويلة انقضت لحرب لم تتوقّف عن الاشتعال بين شرق المدينة وغربها، لم يعرف خلال سعيرها إن كان يقيم في الشرق أو في الغرب، أو كان يقف مع الشرق أو مع الغرب!؟

سنوات طويلة ظلّ فيها حريصاً على التشبُّث بالكأس وزجاجة العرق، التي تعرف كيف تُجدِّد نفسها كلّ مساء لتسند روحه الواهنة التي يتآكلها خوف من موتٍ مفاجئ، رخيص. وقد ظلّت الكأس قادرة على تبديد وحشته في ليالي الموت البهيم.

الآن، ها هو يقف على الشرفة مع الصمت والقلب الشجاع وزجاجة العرق الفارغة، وقد اتخذ قراره الذي لا رجعة عنه، بالمشاركة الفاعلة في الحرب!

لوّح بالزجاجة في الهواء السّاكت بعد محاولة يائسة لامتصاص قطرة عالقة في مكان خفيّ من قعرها..

لوّح طويلاً ولمرّات عديدة متلاحقة، وبحركة دائريّة أخذت تتسارع شيئاً فشيئاً، لتنفلت الزجاجة في النهاية من بين أصابعه بقوّة هائلة لم يكن يتوقعها. طارت في الفضاء قليلاً، لترتطم في الأرض، فيصدر عن ارتطامها هناك صوتاً مُتكسِّراً، حيّياً، سرعان ما ابتلعه الصّمت وعتمة الليل.

لم يُشعل الارتطام ضوء نافذة، ولم يبعث صوت احتجاجٍ من أحد الجيران، أو فضولاً من آخر يستوضح الأمر.

لكن نجمة صغيرة، وحيدة، كانت تتلألأ في السماء الرائقة، الخالية من أصوات الانفجارات والتماعاتها، بدت له وكأنها ترمقه من بعيد. ثمّ رآها، بأمّ عينه، وهي تنفجر ضاحكة من كلّ قلبها!

***

غفا وهو يحتضن نجمته الصغيرة المتلألئة، بعد أن سلخ وقتاً طويلاً وهو يحاول استعادة لحن أغنية تعلمها في روضة الأطفال، منذ زمن لا يبدو له الآن أنه أوغل كثيراً في الزّمن، رغم نأيه عنه عقوداً كثيرة:

Twinkle Twinkle little star

How I wonder what you are

لا يدري كيف فاجأته كلمات الأغنية القديمة، ولماذا ألحّ عليه البحث عن لحنها الغائب في ذاكرةٍ بات النسيان يجتاح الكثير من تفاصيلها ويبددها، رغم أنه نسي تماماً كلّ ما تعلّمه بالانجليزيّة:

Twinkle twinkle..

لكنّ اللحن ظلّ عصيّاً، مراوغاً، يراوده ثمّ يهرب.

تقلّب في الفراش طويلاً، محاولاً إمساك اللحن المتفلِّت..

كان يحسُّ برأسه وكأنه موضوع فوق أرجوحة مُعلّقة، على شجرة توتٍ في حديقة روضة أطفال بعيدة تغصّ بالنجوم التي لا تكف على التأرجح، لتحلِّق في الفضاء، ثمّ تهوي لتصعد من جديد.

رغب في أن يتقيّأ، غير أنه حبس إلحاح الرغبة الطاغية. رأسه تهتزّ.. Twinkle twinkle. الأرجوحة تهتز. حلقه جاف. وهو يجهد في محاولة التقاط اللحن، لكنه لا يكفّ، هو الآخر، عن الإهتزاز والهروب من كلمات الأغنية.

لا يدري كيف غفا، رغم قوّة الإهتزاز. غفا وفي حلقه طعم آخر قطرة من زجاجة العرق.. الزجاجة نفسها، التي كانت قذيفته في الحرب!

***

استيقظ برأسه المثقلة..

استيقظ بعد دقائق، ساعات، أيّام.. لا يدري، إلاّ أن الليل كان ما يزال ليلاً، عندما فتح عينيه بجفنيهما الرصاصيين.

أحسّ بحلقه جافاً مثل رحى طاحونة أفرطت في الدوران، وكما ينبغي لحلق مرّت عليه زجاجة كاملة من العرق. شعر بنيرانٍ موقدة تنبعث من رأس معدته. كان يلهث، فتذكّر أنه استيقظ من منام رأى فيه نفسه وهو يركض في صحراءٍ قاحلة، باحثاً عن واحة ظليلة أو قطرة ماء تائهة في قلب الرمال.

جذبته من فِراشه الدافئ صورة زجاجة الماء المغبّشة في البرّاد. كانت الزجاجة تتراقص في رأسه بكل غواياتها، تراود حلقاً جافاً أنهكه العطش، وأصابع تتشهى تحسُّس سطحها الأملس، وتمسح الغبش عن جسدها البارد.

عندما نفض الغطاء عن بدنه ووقف على البلاط البارد، تذكّر لحن الأغنية..

هبط إليه اللحن فجأة من السماء دون توقُّع أو مقدِّمات. وما أن خطا خطوتين، مترنِّحاً في طريقه إلى المطبخ، حتّى كان اللحن يستيقظ في رأسه تماماً ويستعيد نفسه بإلحاحٍ على لسانه:

Twinkle twinkle little star

How I wonder what you are

وإن لم تخنه الذّاكرة، فقد أخذ يرقص في العتمة، منتشياً باللّحن الذي يتردد في أعماقه. ثمّ شرع يُصفِّر، ويضحك. ولم يلبث أن أطلق عقيرته بالغناء.

أخذ صوته يتعالى شيئاً فشيئاً، حتّى أيقظ جيرانه النائمين، المطمئنين على أعمارهم بعد أن انقضى شطرٌ آخر من سحابة ليلهم في غفلة من القصف.

لكن ما حدث بعد ذلك، في الممر الواصل بين غرفة النوم والمطبخ، كان شيئاً يفوق الوصف.

ـ قف!

جاءه الصوت آمراً. فلم يجد إلاّ أن يتوقّف عن الغناء والصفير والضحك. يتوقف عن الرقص والحركة والتنفُّس، وأن يتجمّد في مكانه، مثل قطعة من الجليد تربض فوق قمّة صنِّين، في ليلة بالغة البرودة.

من بعيد، وتحديداً في نهاية الكوريدور، على مقربة من باب المطبخ، رأى نجمة صغيرة تتلألأ هناك، في قلب الظلمة المهيمنة على المكان. فخمّن أن تكون هي ذاتها النجمة التي غنّى لها في الصِّغر، وداهمته أغنيتها في الكِبَر، في هذا الليل المُدلهم. وكان أشدّ ما أدهشه، تراقصها المُشعّ تلك اللحظة، في قلب بيته.

ولكن، سرعان ما اعترته رجفة مفاجئة، عندما رأى سحابة من الدُّخان

تسبح فوق ضوء النجمة، وسمع الصوت نفسه يُكرِّر آمراً:

ـ قف.. قف مكانك.. لا تتحرّك!

لم يكن بحاجة إلى مثل هذا الأمر، فقد كانت قدماه محتفظتان بثباتهما فوق الرخام البارد، وظلّ جسده متصلِّباً من شدّة الخوف.

ذهبت السّكرة وحلّ الخوف بكل وحشيّته، حينما أدرك أن النجمة التي كانت هناك لم تكن نجمة، وإنما زهرة متأججة لسيجارة تقبع في فمّ الرجل الذي يُطلق أوامره هناك، على حاجز أقيم في بيته، بمقربة من باب المطبخ.

فجأة، اشتعلت الكشّافات التي سلّطت أنوارها الساطعة عليه، فلم يعد يرَ شيئاً. أغمض عينيه هارباً من شدّة الضوء، غير أن الإضاءة بدت أكثر شدّة مما توقّع، فظلّت تلاحق العينين المطبقتين خلف أجفانه المذعورة.

ـ افتح عينيك أيها الأبله، ولا تتقدّم إلاّ حين آمرك!

جاءه الصوت الآمر الذي كان يُعرّي خوفه وارتباكه. يراه الصوت بكامل رعبه وارتجافاته، فيبدو له مثل شجرة في مهب العاصفة، دون أن يتمكّن هو، من زاويته، أن يرى صاحب الصوت الغارق في قلب الضوء.

كان الصوتُ حاداً وقاطعاً، ما اضطره إلى فتح عينيه بصعوبة على سطوعٍ ماحق يخطف الأبصار.

ومِن خلال سطوة الضوء، أبصر في الغبش النوراني ملامح الرجل الآمر الناهي. فقد كان وسيماً مُشرق القسمات، على عكس ما توقّع من نبرات صوته الخشن:

ـ من أنت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ ولماذا تتجوّل في هذا الليل البهيم؟!

أجاب بصوتٍ رجراج ولسان أشدّ جفافاً ومرارة:

ـ إسمي محجوب. وأنا متوجِّه من غرفة النوم إلى المطبخ لتناول جرعة ماء.

ـ ألا تعرف أن التجوال ممنوع.

ـ لم أكن أعرف من قبل.. لم أكن أعرف أن التجوال ممنوع.. هنا.. والآن!

لم يفقد الصوت لهجته الآمرة وهو يطلب الهويّة:

ـ هويتك يا محجوب. أعطني هويتك.

تقافزت يدا محجوب بين الصدر والمؤخِّرة، تبحثان بأصابع متوتِّرة على الهويّة، علّها تكون، مُصادفة، في مكانٍ ما هناك. لكنه تذكّر أنها تربض دائماً في المحفظة المقيمة في الجيوب الخلفيّة لبنطاله. واكتشف الآن أن منامته تفتقد إلى الجيوب. إذاً، فقد نسيها هناك، فقرّر بينه وبين نفسه، أن يشتري في المرّة القادمة منامة بجيوب، وخاصّة بجيوبٍ خلفيّة. قال بتردد:

ـ لقد نسيتها. نسيتها هناك يا سيِّدي، في غرفة النوم.

صاح الصوت مؤنِّباً:

ـ وهل يخرج عاقل في هذه المدينة من غرفة نومه، وفي مثل هذا الوقت من الليل، دون أن يحمل هويّة؟!

تذكّر عطشه الذي تلاشى في لجّة الخوف، وهو يقول:

ـ إنها هناك. غرفة نومي قريبة. أذهب إليها الآن وأعود إليك بالهويّة.

أجاب الوجه الآمر بلهجة أقلَّ قسوة:

ـ اذهب.. اذهب وعد مثل البرق. لا تتأخر.

كان صاحب الصّوت ودوداً كما لم يكن من قبل، حتّى أنه استفاض في تحذير محجوب من القذائف العشوائيّة والقنص والحواجز الطيّارة. ما اضطر محجوب لأن يبتسم للمرّة الأولى منذ أن رأي النجمة التي كانت تتوهّج عند باب المطبخ، وأن يهزّ رأسه شاكراً ومُعرباً عن امتنانه للرجل المتسامح. وحمد الله في داخله لأن مثل هذا الرجل الآمر الناهي، لا يعرف شيئاً عن تلك القذيفة التي أطلقها عند منتصف الليل وتكسّرت في الشارع، وليست لديه أدنى معلومة عن مدى مشاركته في الحرب.

انثنى محجوب يحجل على قدمٍ واحدة، عائداً إلى غرفة النوم وقد بـدّدت النهاية السعيدة عطشه، فلم يعد بحاجة إلى الماء، وكان في دخيلته يردد ذات الأغنية بلحنها الذي سَعِد هذه الليلة بالتقاطه بعد مراوغة:

Twinkle twinkle little star

How I wonder what you are

- آآآ..ي..ي..ي..ي..ي!

أحسّ محجوب بنجمة صغيرة، ربما تكون هي نفسها النجمة التي يُغنِّـي لها، تخترق جمجمة رأسه وتستقر في التجويف الذي هناك.

كانت دافئة، حارّة. لكنها بدت قاسية، وموجعة أكثر مما تنبغي.

سقط محجوب على الأرض.

تكوّم إلى جوار بقعة الدم الدافئة، المسفوحة على رخام الأرضيّة الباردة.

ابتلع لعابه الذي ما زال يحتفظ بطعم آخر قطرة من زجاجة العرق..

وغفا،

غفا طويلاً، ربما للمرّة الأخيرة، وإلى الأبد..

غفا هناك.. في المسافة الواقعة بين غرفة النوم والمطبخ!

(13)

الـرّفيق

كان يأتينا في الاستراحة الفاصلة بين القذيفة والقذيفة. يدلف إلى البيت كأنه مبلل بمطر الرصاص. ينفض عن ملابسه شظايا النحاس وهو يضحك. وكان شديد التفاؤل!

ـ ما الأخبار في الخارج يا رفيق؟

نسأله، فيجيب بثقة لا يشوبها أدنى شك:

ـ ممتازة.. ممتازة.. الأخبار عظيمة!

بقرار يشبه قرار الاستشهاد، يندفع أحدنا إلى المطبخ المُشرف على النافذة المعرّضة للقصف من جهة المتحف.. يستولي على كأس فارغة، ثمّ يعود هارعاً إلى الغرفة الغربيّة التي كنا نحسب أنها محصّنة. نهيىء للرفيق كأساً من خمرنا الذي يقينا غائلة القصف ورعب الموت العشوائي الذي يتجوّل في فضاء المدينة وطرقاتها ويخترق جدرانها، ثمّ نعيد السؤال بصيغة أخرى:

ـ آه.. هات ما عندك من أخبار!

يعبّ الرفيق من كأسه وهو يتلمّظ:

ـ خمرة عظيمة.. ممتازة.. والأخبار عظيمة!

لم نعد نحفل بالقذائف المتساقطة التي أخذت تزداد اقتراباً، فقد تحوّلنا إلى آذانٍ صاغية وعيون معلّقة في وجه الرفيق وأخباره العظيمة:

ـ الأخبار مُنعشة.. مثل هذا الخمر اللذيذ. فالرفاق في البرتغال يحققون انتصارات ساحقة في الانتخابات هناك. الرفيق غونزاليش يكتسح الساحة.. والإنتهازي سواريش يخسر مواقعه.

ثمّ يفزّ واقفاً ليشرب نخب الرفيق الشيوعي، الأممي الحقيقي الذي يتقدّم نحو تحقيق الانتصار الكاسح في الانتخابات هناك:

ـ في صحّة غونزاليش..

فنقف ونضرب كأسه:

ـ في صحّة غونزاليش..

يستفيض الرفيق في شرح تفاصيل المعركة الإنتخابيّة في البرتغال. وتستفيض القذائف في شرخ هيبة الليل. أمّا نحن، فنستفيض في سفح الشّراب حتّى تختلط علينا الأسماء. فيقف شريكي في المسكن مترنحاً، وقد التبست عليه الأسماء وأمور الدنيا كلّها، رافعاً كأسه وهاتفاً:

ـ في صحّة سواريش!

فيُردد الرفيق بحماس وهو يبادلنا النخب بحرارة، وقد انزلق إلى خطأ اقتيد إليه على حين غفلة:

ـ في صحّة سواريش!

يكرع الرفيق قليلاً من كأسه، ثمّ يكتشف فجأة أنه استُدرج إلى فخ تبادل نخب في صحّة واحدٍ من أعدائنا الطبقيين الذين يحاولون التسلل إلى مواقع السلطة في البرتغال. فيبصق ما في فمه على الأرض وهو يُطْلِق ضحكته المجلجلة ويشتم صارخاً:

ـ اللعنة عليك.. واحد عميل.. خائن .. مخادع. كدت يا قوّاد تجعلني أشرب في صحّة ذلك الدّعي!

ولا ينقذنا من مطر شتائمه سوى سقوط قذيفة قريبة كنا نحسبها في واحدة من غرف البيت الأخرى..

***

بعد أن يعم صمت القذائف، ويستولي التعب على أجسادنا، يستأذننا الرفيق بالمبيت على الصُّوفة التي يجلس عليها في الصالة. فنهز رؤوسنا إرهاقاً وتعباً، ليستودعنا الأحلام المستحيلة بعبارته التي سئمناها لفرط ما كان يُرّددها:

ـ تصبحون على وطن!

ثمّ يُضيف جملة أخرى أصبحت من مستلزمات اللحاق بالأولى مباشرة والانزلاق تلقائياً على لسانه:

ـ.. وعلى امرأة شقراء!

ثمّ يتوجّه إلى فراشه، يتمدّد واثقاً، مطمئناً من حتميّة نصرٍ مؤكّد يلوح في آفاق الكون، ويُقيم بين عينيه دون أن يبرح.

ولم يحدث في أي صباح أن استيقظنا على ما تمناه لنا الرفيق.

لم نكن نصبح إلاّ على صُداع شرسٍ يُفجِّر الرؤوس.

أمّا الرفيق، فقد كنّا نتعثّر به في الصباح على كنبة الصالة، سادراً في نومه، كحلمٍ مؤجّل للثورة الدائمة!

***

في زاوية منسيّة من زوايا صحيفة يساريّة كان يتمّ تداولها، وإلى زمنٍ قريب، بشكلٍ سريّ وفي حدود ضيِّقة، جاء الخبر الذي بدا ثانويا وغير لافت للانتباه!

ففي يوم هادىء شهدته المدينة، خلا من الاشتباكات والقصف المتبادل، رحل عن دنيانا مثقف ومناضل أممي كان يحلم بالثورة الدائمة. وقالت الصّحيفة أن الرفيق قضى نحبه عندما كان يقطع الشارع على الكورنيش، فدهمته شاحنة مُسرعة لمقاتلين مستنفرين يلوِّحون بأسلحتهم الرّشاشة، فتطاير جسده مع أوراقه التي تطايرت على الاسفلت، ثمّ تبعثرت على الرّصيف.

لم تُكمل الصحيفة فتقول، إنه كان يحلم بصباحات تُشرق فيها الشّمس على الوطن. وظلّ يردد على أصدقائه أمنيته الأخرى الأثيرة، التي تحلّ دائماً في السّاعات المتأخرة من الليل، بأن يصبح الواحد منهم على امرأة شقراء!

لقد عرفناه طوال سنوات حربٍ عشناها معاً، بكلّ أيامها ولياليها، دون أن يخطر ببال أحد منّا، اقتناص لحظة صفاء، لنطرح عليه سؤالاً بسيطاً ما

كان علينا أن نؤجِّله حتى سقوط ورقته الأخيرة على الرّصيف.

غير أننا، بعد أن واريناه التراب، توقفنا، نحن بعض أصدقائه، عندما باغتنا السؤال حول إذا ما كان أحدٌ منّا، يعرف له اسماً نكتبه على شاهد قبره!

تقدّمت منّا صبيّة ترتدي الجينز.

كانت مطفأة العينين، شاحبة الرّوح.

قبل أن تنطق بكلمة، حرّكت ظاهر كفّيها فوق ملابسها، فبدت وكأنها تنفض عن بدنها مطر الرّصاص، تماماً مثلما كان يفعل!

قالت إنها تعرفه جيِّداً. فقد تعرّفت إليه منذ وقتٍ طويل، في بيت جبليّ كان يسكنه مع اثنين من أصدقائه غادرا المدينة مع صياح الديك المعدني وأوّل الرّصاص في عين الرّمانة.

حدث ذلك قبل أن تقع الحرب، وكان يظنّ في تلك الليلة أنها حرب لن تقع!

ورغم لقاءاتهما التي تكرّرت كثيراً، ومشاعرهما التي تأجّجت ودفعتهما إلى التفكير جدياً بالزواج فور انتهاء الحرب، فإنها لم تعرف له اسماً أو اسم عائلة!

لم تذكر صبيّة الجينز شيئاً آخر عن علاقتها به، مع أنها تتذكّر كلّ شيء. وتسكنها تفاصيل ما حدث.. أين ومتى وكيف!

غير أنها آثرت أن تكتفي باقتراح كلمة واحدة نكتبها على شّاهد القبر: "الرّفيق"!

فهل أخطأنا، ونحن نستجيب لصبيّة الجينز، التي لم يكن أحد منّا قد رآها أو سمع عنها من قبل. وكان أكثر ما فاجأنا فيها، أنها لم تكن، أبداً، شقراء!؟

(14)

الجنـازة

بالأمس، انفجرت سيارة في الشارع المكتظ بالباعة المتجوّلين ومحلات العصير والشاورما والملابس التي تُعلن عن تخفيضاتها.

أصابت شظايا العبوة المتفجِّرة وقطع الحديد الممزّق، الناس الذاهبين إلى أعمالهم، ما أودى بحياة الكثيرين منهم، وكان من بينهم جارنا المقاتل وزوجته، التي ظلّت تتمنّى ملاقاة الموت قبله، حتّى لا تحمل حسرته. ولم يدرِ أحدٌ من معارفهما وأصدقائهما الذين كانوا علم بتلك الأمنية، أيّ من الزوجين لفظ أنفاسه الأخيرة قبل الآخر!

بعد صلاة الظُّهر، سرنا وسار الناس باكين في الجنازة، التي انطلقت من الجامع القريب إلى مقبرة الشهداء.

لم تكن الطفلة الشقراء الباكية، التي رأيناها تسير خلف النعشين المحمولين على موج الأكفّ والحناجرة المُهلِّلة، المُكبِّرة، تعرف الحقيقة!

لم تكن تعرف أن نعشيّ والديها، لا يحملان سوىّ مزقاً قليلة من ملابس رجل وامرأة جمعها رجال الدفاع المدني من زوايا الشارع الذي شهد الانفجار..

وكانت مزق النسيج تلك، هي كلّ ما تبقى من أمّ.. وأب!

(15)

المرأة التي تُعنى بالتفاصيل

بدت الأشياء أكثر تآلفاً وانسجاماً بعد أن اتخذت أماكنها في البيت الجديد الذي سكنّاه مؤخراً في شارع مدام كوري. وكانت هي، تواصل حركتها السريعة، لتمنح كلّ شيء مسحة أخيرة، بينما استلقى هو على الأرضيّة المغسولة، يتوسّل الراحة والبرودة في ذلك الصيف اللاهب.

كانا قد عثرا على هذه الشقّة الواقعة في عمارة تمكنّك من أن ترى، من أدوراها العليا، رقعة كافية من البحر، وترقب السفن القادمة المتوجِّهة نحو الميناء، وتلك التي تُمخر بعيداً في المدى الأزرق المترامي خلف الغابة الحجريّة الكالحة.

كانت تكفيهما غرفة واحدة.. واحدة فقط.. وصالة واسعة تنتهي بشرفة تطلّ على حديقة قصرٍ مجاور تستبق البحر، تنهض في أرضها شجرة أرزٍ كبيرة تفرد أجنحتها مثل طائر أسطوريّ، قيل أنها قد تكون الوحيدة في المدينة!

التفَت إليها.

كانت تسأله عن المكان المناسب لتدقّ فيه مسماراً يطل رأسه من بين أصابعها.

ـ هنا أم هناك؟!

فكّر بأنها تهتم كثيراً في التفاصيل. فهو لم ير الفارق شاسعاً، أو ملحوظاً، بين هنا وهناك. مليمتراً أو إثنين لا تدركهما دقّة العين اللمّاحة.

وافق على هنا القريبة ليعفي نفسه من مشقّة الدخول في التفاصيل.

دقّت المسمار بصعوبة ثمّ علّقت عليه الصورة. تراجعت بضع خطوات

إلى الوراء ووقفت تتأملها.

ـ ما رأيك؟!

ـ جميلة. مكانها مناسب، وهي جميلة.

رغم رأيه المُشجِّع، فقد رآها وهي تتحرّك مرّة أخرى نحو الصورة. أزاحتها قليلاً، مليمتراً أو اثنين، معدِّلة وضعها مجدداً. أمّا هو، فلم يكن قد لاحظ أنها كانت مائلة وتتطلّب التعديل، ردّد في نفسه:

"إنها تهتمّ كثيراً بالتفاصيل"!.

اندفعت نحو غرفة النوم، الغرفة الوحيدة في البيت الجديد، وعادت وهي تحمل صورة أخرى.

شرعت تمسح الحائط بعينين حائرتين.

وضعت الصورة على الحائط دون أن تطرح أسئلة، وعادت إلى الداخل من جديد.

سمع صوتها، مرّة أخرى، يقول:

ـ لا أدري أين سأضع الملابس؟ علينا أن نشتري خزانة في وقت قريب!

قال:

ـ دعيها في الحقيبة حتى يتسنى لنا ذلك.

ثمّ سمعها تتحدّث وهي تقف إلى جانبه، تتأمل صناديق الكتب المكدّسة على الأرض. لم يفهم ما تقول، فرمقها بنظرة مستفسرة. قالت مُكرِّرة وقد علا صوتها:

ـ الكتب كثيرة، إنها بحاجة إلى مكتبة كبيرة!

هزّ رأسه موافقاً دون أن تراه. قالت:

ـ سنضع ذلك على رأس مشروعاتنا القادمة.

عاد إلى هزّ رأسه مجدداً، وتأكّد هذه المرّة من أنها رأته، ثمّ أضاف مبدياً الاهتمام:

ـ ضعيها الآن على الأرض، مستندة على الحائط، واحرصي على أن تكون كعوبها في اتجاهنا، بحيث نستطيع معرفة الكتاب الذي نريد!

ثمّ غفا، غفا طويلاً..

***

الآن، بعد ثلاثين عاماً وما يزيد، ونحو عشرين بيتاً أو أكثر، وبضعة حروب، ها هما في بيتٍ آخر جديد، في مدينة أخرى بعيدة.

لا بحر في المدينة،

ولا شجرة أرزٍ وحيدة،

ولا طاقة للقلب على أحلام كثيرة مضت منكسرة.

الصور التي تزايدت عبر السنين، يتكدّس فوق أسطحها الآن غبار مقيم، وقد بهتت الملامح عن وجوه أصحابها وامّحت التفاصيل.

والكتب أصابتها رطوبة لاصقت صفحاتها بعضها ببعض، وباتت تنثّ رائحة عفنٍ وورق عتيق، ربما لفرط مكوثها الطويل في الصناديق..

والملابس تتكدّس في الحقائب وقد أكلها العثّ..

تتطلّع المرأة بعينين ذابلتين إلى كومة الأشياء المتناثرة، وإلى الحقائب المتزايدة من حولها، ثمّ تُلقي نظراتها المنهكة إلى الزوج الذي أصابه الوهن في خلسة من الزمن، وهي تقول:

ـ أكان لا بدّ لهذه الأشياء من أن ترافقنا طوال العمر؟

أكان لا بدّ لكلّ هذه التفاصيل؟!

(16)

عندما تنتهي الحرب

قالت لي، وهي تواصل غسل الأطباق بعد العشاء:

ـ المقلاة لديك مكسورة الذراع، عليك استبدالها في وقت قريب.

قلتُ لها وأنا أهزّ رأسي موافقاً:

ـ نعم.. نعم، عليّ أن أقوم بذلك. الوضع ما زال مؤقّتاً كما تعلمين. سوف أستبدلها بالضرورة، ولكن عندما يتوقف القصف وتنتهي الحرب!

في اليوم التالي، وكنا نشاهد الأخبار على شاشة التلفزيون الرماديّة الشّاحبة. تأففت وهي تقول:

ـ لم نعد نميِّز الأخبار عن المسلسلات في هذا الجهاز باهت الصورة. عليك أن تسارع إلى شراء جهاز جديد.. والأفضل أن تكون شاشته ملوّنة. لم يعد غيرك في الدنيا متشبثاً بالأبيض والأسود!

قلتُ مستعيداً هزّة الرأس نفسها:

ـ لا بدّ من ذلك، فهذه الشاشة تعمي العيون. سأشتري جهازاً جديداً بالألون، ولكن لننتظر قليلاً.. حتى تنتهي الحرب!

في اليوم الثالث، وكنتُ أقف معها على كورنيش المزرعة في انتظار سيارة أجرة تقلّها إلى بيتها، تساءلَتْ بعد تأفُّف كدتُ أعتاد عليه:

ـ متى ستكون لديك سيارتك الخاصّة التي تخلصنا من همّ الانتظار؟!

قلتُ مهدئاً من غضبها:

ـ إنني أفكِّر جدياً في ذلك، لكنني أؤجِّل الأمر إلى أن تنتهي الحرب.

في الليلة التالية، لم تستطع المغادرة لاشتداد حدّة القصف وتساقط القذائف في محيط البيت. قالت وهي ترتجف:

ـ سيقلق أهلي لغيابي عن البيت، وربما يساورهم الشكّ، وهُم في ذلك على حق، بأنني على علاقة برجل!

ثمّ أضافت بحزم:

ـ اختيارك السكنى في هذه المنطقة المعرّضة للقصف لم يكن موفقاً. عليك أن تختار منطقة أكثر أمناً، تتيح لي المغادرة متى أشاء وعدم الاضطرار للنوم بعيداً عن البيت.

قلت دون أن يستفزّني طلبها الذي لم يكن في موعده:

ـ معك كلّ الحق. بمجرّد أن يتوقّف القصف وتنتهي الحرب، سأسارع للبحث عن بيت آخر أكثر أمناً.

***

بعد تلك الليلة التي اضطرّتْ فيها للمبيت في بيتي، والتصقت بي في عتمتها أكثر مما يجب، وأكثر من أيّ وقتٍ مضى، فكأنها تستجير بظلّ رجلها من شدّة القصف، غادرتني قبل أن أستيقظ ويستيقظ القصف من جديد، تاركة خلفها بقعة دمٍ صغيرة على السرير!

ولقد مرّ أسبوع،

أسبوعان،

دون أن تتردّد عليّ كعادتها..

وكنتُ خلال أيّام غيابها أنتظر توقُّف القصف، لأشرع في البحث عنها. غير أنها جاءت من غير ميعاد أو توقُّع.

بدت كسيرة القلب وهي تقول:

ـ منذ تلك الليلة التي قضيتها هنا وتركت لك فيها هديّتي على السرير، منعني أهلي من الخروج، بعد أن عانوا ليلة رهيبة من قصف الأفكار السوداء. وقد فعلوا ذلك رغم عدم علمهم بالحقيقة كاملة.

وعندما أبديت دهشتي المزدوجة لحديثها الغامض، مرّة لجهلي بالهديّة

التي تتحدّث عنها، والثانية لعدم علمي أنا الآخر بالحقيقة الكاملة، أضافت:

ـ لقد فقدت بكارتي في تلك الليلة، فمتى نتزوّج؟!

قلتُ بصدق، مهدئاً من روعها ومُبدداً هواجسها ومخاوفها العارمة من المجهول:

ـ نعم.. نعم.. لا بدّ أن نتزوّج. حتّى لو لم يكن مثل ذلك الأمر قد حدث، فإن قصتنا لا بد لها من نهاية. علينا أن نتزوّج، ولكن بعد أن تنتهي الحرب!

في اليوم نفسه، ودون أن نتزوّج، اشترينا مقلاة جديدة بذراعٍ طويلة. بعد ذلك بأسبوع، اشترينا تلفزيوناً ملوّناً جديداً، ثمّ بعد ذلك بشهرين اشترينا "فولكس فاجن" مستعملة أنقذتنا من انتظار سيارات الأجرة، وأتاحت لنا، في الأيّام الرائقة، أن نذهب في نزهات إلى الجبل أو ملتقى النهرين. ثم بعد شهرين آخرين، استطعنا أن نعثر على بيت في منطقة نسيها القصف وخرجت بمعجزة عن نفوذ القذائف المتساقطة على المدينة.

كبر بطنها في غفلة من الزمن، وهي صامتة. وعندما انتبهتُ إلى ذلك، كان لا بدّ لي من مبادرة، فسألتها:

ـ متى سنتزوّج؟

قالت دون تردُّد:

ـ عندما تنتهي الحرب.

***

مع ذلك، فقد تزوجتُها دون أن تنتهي الحرب.

أنجَبَتْ إبننا الأوّل في ليلة جُنّت فيها ديوك بيروت المعدنيّة..

وجاء الإبن الثاني بعد عامٍ ونصف العام، في ليلة لم يتوقّف فيها مطر الرّصاص، ثمّ ولدتْ الابنين الثالث والرابع معاً، ومرّة واحدة، دون أن

يتوقّف القصف.

كبر الأولاد. تزوّجوا.

كبر أطفالهم، ونحن أيضاً كبرنا.

هي ماتت قبل عامين، عندما استفحل السرطان في صدرها الذابل، وأنا أصبحتُ أسير مرضٍ لا شفاء منه، أمشي متوكئاً على عـصاً مـن الأبينـوس أحضرها لي إبني الكبير من إفريقيا.

***

بالأمس، انكسرت يد المقلاة التي اشتريناها معاً قبل سنوات بعيدة.

بكيتُ طويلاً في وحدتي، وقررتُ بحسم:

لن أشتري واحدة جديدة..

فالحرب لم تنته بعد!

(17)

طفلة برائحة الحليب

عند المتحف، وتحت شُعاع شمسٍ سخيّة ترشق الأرض بسهامٍ من نـار، أوقف المسلحون المرأة الحامل التي ينوء كتفها بحقيبة سفرٍ صغيرة. صلبوها لبعض الوقت عند حاجز الأكياس الرمليّة الذي أقـاموه عـلى أوّل الـشارع المُفضي إلى البربير.

بعد وقتٍ مرّ متثاقِلاً، ظلّ يفتح شدقيه ويتثاءب ببلادة، عانت فيه المـرأة وجنينها الكثير من شدّة الحَرّ، سألوها عن هويتها، فقدّمت جواز سفرها.

سألها مسلّح يستريح رشاشه على كتفه، وكان يتفرّسها بعينين مرتابتين:

ـ مصريّة؟!

هزّت رأسها إيجاباً.

حينئذٍ، طرح عليها السؤال الذي كانت تتوقّعه:

ـ إلى أين أنتِ ذاهبة في هذه الحرب والمعارك في عزّ اشتعالها؟!

قالت إنها متوجِّهة إلى منطقة الحمراء للبحث عن زوجها الذي انقطعت أخباره منذ بداية الاجتياح. جاءت من الإسكندريّة إلى دمـشق، أضـافت، ومنها إلى بيروت عبر طرابلس، خصيصاً للبحث عنه، بعد أن انـشغل بالهـا طويلاً عليه.

قالت لهم بلهجتها المصريّة التي تخالطها مُفردات لبنانيّة غير مُتقنـة، إنـه يعدّ للماجستير في الجامعة الأميركيّة ببيروت، دراسات سيكولوجيّة. هكـذا قالت، ودمعت عيناها قبل أن تجهش في البكاء.

تهامس المسلحون الواحد منهم مع الآخر. تمتموا طويلاً وهم يوزِّعـون نظراتهم بينها وبين صورتها على جواز السّفر. ثمّ أشار إليها المُسلّح الممـسك

بالجواز وهو يعيده إليها:

ـ إذهبي. ستجدين أمامك حاجزاً إسرائيلياً. قد يسمح لـك بـالمرور إلى الغربيّة وقد لا يسمح. لن نمنعك، لكننا لن نستطيع مساعدتك إذا منعوكِ.

كانت المرأة الحامل تتحسسّ بطنهـا وهـي تقطـع المسافة بـين المتحـف ومستشفى البربير، في طريق بدت لها موحشة، بـين الركـام والـدّمار وبقايـا الحرائق والمسلحين والجنود الإسرائيليين الذين تمكنوا من احتلال أجزاء من المدينة.

كانت تعرف أنها تكذب. وكانت سعيدة لأن كـذبتها انطلـت علـيهم، رغم أن الحقيبة بدت أكثر ثقلاً عمّا كانت عليه من قبـل. وقـد شـعرت بـأن بطنها ازداد انتفاخاً في المسافة بين المتحف والبربير!

عند الحاجز التالي أوقفها الجنود.

كـان حـاجزاً حديـدياً مُلفقـاً، صـنعته دبابـة معطوبـة ترتـسم النجمـة السداسيّة على جانبيها باللون الأزرق، وتقف هناك، على بُعد مائتيّ متر مـن الحاجز الأوّل.

سألها الجندي الذي تأمّل جواز سفرها طويلاً، بلغـة عربيّـة مُضعـضعة تقلب الحاء خاءً وتُذكِّر المؤنّث وتجعل المضارع أمراً، إلى أين هي ذاهبة؟!

قالت له بصوتٍ يشعّ ثقة، إنها جاءت تبحث عـن زوجهـا الـذي يعـدّ للماجستير في الجامعة الأميركيّة. دراسات سيكولوجيّة. وانقطعـت أخبـاره عنها قبل شهرين ونصف الشّهر.. منذ بداية الحرب الأخيرة.

واصل الجنديّ المُمسك بجـواز الـسّفر أسـئلته مستفـسراً عـن جنـسيّة زوجها الذي يعدّ الماجستير في الجامعة الأميركية. قالت له إنه مصريّ أيضاً. وكانت تكذب للمرّة الثانية.

إنطلت الكذبة على الجندي الذي يعبث بـالحروف ويقلبهـا عـلى هـواه، فأعاد إليها جواز السّفر بعد تردد لم يطل.

واصلت سيرها حتّى اقتربت من مستشفى البربير.

***

على الحاجز الثالث، سأل أحد الشبان المستنفرين هناك المرأة الحامل التي تنوء بثقل الحقيبة الصغيرة وبطنٍ يتثاقل، وكانوا يهيئون أسلحتهم التي تُوجِّه فوهاتها نحو المتحف، عن هدفها. فكانت تعرف أنها لم تعد بحاجة، بعد الآن، إلى مزيدٍ من الكذب. قالت لهم:

- إنني ذاهبة إلى بيتي في الفاكهاني. جئتُ للبحث عن زوجي المُقاتل. أرسلني قبل شهرين إلى أهله في مخيم زيزيا على أطراف عمّان، وذهب هو للقتال في الجنوب. منذ ذلك الوقت انقطعت أخباره.

حدّق أحدهم في بطنها، فبدا لها من خلال نظراته أنه غدا أكثر انتفاخاً عمّا كان عليه من قبل.

سألها إن كانت بحاجة إلى مساعدة، فنفت شاكرة. قالت له إنها تعرف طريقها جيِّداً، ولم يعد بيتها في بعيداً.

مع ذلك، أشار المقاتل إلى سيّارة جيب يجلس فيها ثلاثة من رفاقه. طلب منهم أن يأخذوها إلى بيتها في الفاكهاني.

حملتها السيّارة المُسرعة إلى بيتها الذي هناك. كان الشبّان يحتسون البيرة، فشعرت بجفاف حلقها وبعطشٍ يداهمها في تلك الظهيرة بالغة الحرارة.

هبطتْ عند مدخل البناية التي أصابتها شظايا القصف.

شكرت المقاتلين الذين يحتسون البيرة، ثمّ صعدت سلّماً يكتسحه ظلام دامس، رغم شمس منتصف النّهار. أخرجت مفتاحها على ضوء ثقاب. وعندما فتحت الباب الذي عششت في زواياه العناكب، إكتسحتها قسوة غياب غامض.

مضت أيّام. سألت عنه في كلّ مكان يمكن أن يوجد فيه.

كان يقال لها إنه لم يعد من الجنوب. ومثل كلّ المقاتلين، قد يعود أو لا

يعود. وليس أمامك سوى الدُّعاء.

كانت السُّفن مهيّأة للرحيل.

ولم يكن أحدٌ يمتلك ترفاً من الوقت ليُعنى بها.

***

حملوا أسلحتهم وكانوا يتوجهون نحو البحر..

نحو ميناء مشرّع لرحلة أخرى إلى المجهول.

وقفت على الرصيف تتفرّس وجوه المقاتلين الذين اعتلوا ظهور الشّاحنات، يلوِّحون بأيديهم التي تتناثر عليها من الشُّرفات أوراق الورد وحفنات الأرز. تتصفّح البشر علّها تتعثّر بوجهه.

عادت إلى بيتها مُحبطة وحزينة.

ظلّت لأيّام وحيدة، في البيت والمدينة، تنتظر وقع خطواته قادماً من الجنوب، ودقّات قبضته المشتهاة تطرق الباب المستوحش.

وعندما جاءها المخاض، في بيتٍ يكتسحه غياب شرس، وجدت نفسها تصرخ دون أن يشعر بها أحد، أو يصغي إليها أحد. تعالى صوتها ولا من مجيب.

انزلقت الطفلة من رحمها دون مساعدة من بشر.

***

اللصوص الذين دخلوا البيت بعد ذلك، جالوا بأبصارهم في أرجاء البيت، فراعهم المشهد..

رأوا طفلة وليدة عارية تغرق في دمها وشحوبها الأزرق وماء الرحم. تستلقي على صدرٍ متراخٍ لامرأة تذرف دماً جامحاً يُسربل نصفها السُّفليّ ويُغرق السرير.

كانت المرأة قد نزفت حتّى الموت، بعد أن ألقمت وليدتها حلَمَة جافّة، ذاوية، قاحلة، فيما الطفلة ما انفكّت تُحاول استدرار حليبٍ بدا مستحيلاً أو

أكثر من مستحيل.

أمسكها أحد اللصوص بعد أن لفها في ملاءة نظيفة. قال وهو يحتويها بذراعين متشبّثتين:

ـ إنها ابنتي. سأجعلها منذ الآن واحدة من أبنائي.

ثمّ أضاف:

ـ عندما تكبر، سأروي لها القصّة. سأعترف لها بأن هدفي من دخول هذا البيت، لم يكن إلاّ بدافع السّرقة!

احتضنها بذراعين حانيتين، فاشتمّ في جسدها رائحة حليب دافيء.

تلك الرائحة لم تُغادر الطفلة منذ ذلك اليوم وحتّى آخر يومٍ من عُمرها.

لم تكن الطفلة بحاجة إلى الرِّضاعة لتنمو وتكبر. وقد ظلّت، كلما شعرت بالجوع، تكتفي بمصّ أصبعيها، السّبابة والوسطى، اللذين ظلا يُفرزان سائلا شديد البياض، بالغ السّخاء، يتدفّق كلما لمستهما بأطراف لسانها.

ثمّ انتبه من حولها أنها كانت تُلقم أطفال الحارة، البكّائين والجوعى، إصبعيها، فتُسكت بكاءهم وجوعهم. وقد ظلّت تحافظ على ذلك، حتّى بعد أن كبرت وغدت صبيّة لا تلتفت إلى النظرات الشهوانيّة الطائشة لشبّان المُخيّم، الذين كانت تستثيرهم وهي منهمكة في مصّ إصبعيها.

***

بعد نحو عشرين سنة، أكثر أو أقلّ قليلاً، حال موت الرجل الذي لم يتوقف عن سرد القصّة وممارسة السّرقة وبيع الحليب الفائض لإطعام الأفواه التي تكاثرت في البيت، دون أن يسمع الخبر الذي تمنّى طويلاً سماعه:

فتاة في عُمر الورد، دون العشرين، فجّرت نفسها في دوريّة إسرائيليّة كانت تسير على طريق ريفيّة ظنّتها آمنةً، هناك.. في الجنوب.

أمّا صورة الفتاة التي احتلّت الملصق، بخلفيتة البيضاء الناصعة بلون

الحليب، فقد امتلأت بها جدران صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة، وغطى بها أخوتها من أبيها الرّجل الذي جاء بها ذات يومٍ من أواخر أيام الحصار، مدخل عمارة في الفاكهاني، لها درجات تستوطنها العتمة في عزّ الظهيرة.

وكانت الفاكهاني، صبيحة ذلك اليوم الربيعيّ الحزين، تضجّ بالصورة نفسها. وثمّة رائحة غريبة تتسلل إلى أفق الحيّ وتسكن البيوت!

عند المساء، قبل زوال الشّمس ، كانت الرائحة نفسها تهبّ على بيروت الغربيّة، من جهة الجنوب. تحلّ مع ريح قويّة، مضمخة بالحليب، لتملأ الفضاء، وتتسرّب إلى شرق المدينة، ناشرة شذاها على تلك الطريق المفتوحة، الواصلة بين المتحف.. ومستشفى البربير.

(18)

عند أوّل الزقاق

كنا ثلاثة، نقف هنا، قبل يومين أو ثلاثة.

كنا ثلاثة،

نقف في أوّل الزقاق المُفضي إلى مقبرة الشهداء التي فاضت بقاطنيها.

بالأمس، و في رفّة عين.. أصبحنا إثنين.

نقف في أوّل الزقاق،

فوق رؤوسنا مُلصق ثالثنا الذي كان يقف معنا هنا، قبل يومين أو ثلاثة. لكنه مضى قبل قليل إلى مقبرة الشهداء، التي فاضت بقاطنيها، دون تلويحة أو وداع.

وها نحن نقف مترقبين،

كنّا اثنين.

نتطلّع بعيونٍ وجلة، متسائلة: إلى أين تمضي الرصاصة التي انطلقت قبل قليل؟!

إلى..

أين..

تمضي؟!

الآن، ثمّة رجل وحيد، يقف في أول الزقاق تحت مُلصقين. ينتظر شيئاً يجيء مع الصوت الآتي بسرعة خارقة.

يقف وحيداً، في أوّل الزقاق.

حائراً،

مُرتجفاً،

متسائلاً:

إلى أين تمضي الرصاصة التي انطلقت قبل قليل؟!

(19)

على مقعدٍ في القطار السّريع

الشّاعر المهاجر من وطنه هرباً من أهوال الحرب، التقى المرأة التي أحبها في رحلةٍ للقطار السّريع.

فلولا الحرب ما كان الحبّ.

الشاعر المهاجر حاول أن يُحدِّث المرأة ذات العينين الفيروزيتين، فهزّت رأسها نفياً، ففهم أنها لا تفهم اللغة التي يتحدّث بها.

حاولتْ أن تُحدِّثه بلغتها، ففعل الشيء الذي فعلته.

وضحكا معاً!

غير أن حاجز اللغة لم يقف حائلاً بين قلبين متوهِّجين.

فالشّاعر المهاجر، الذي امتلك قلباً عارياً وعينين لا تكفّان عن البوح، كان يبثُّ كلمات رقيقة تشي بمطلع قصيدة، دون أن يضطرّ للكلام.

والمرأة التي كانت قادرة، بعينيها الفيروزيتين، على أن تقرأ الشِّعر في سحابة عابرة، وضحكة طفلٍ مشاغبة، ونرجسة تعِد بالتفتُّح، وحجرٍ على الطريق، استطاعت أن تقرأ في عينيه هديلاً يشبه مطلع قصيد يتشكّل، فأحبته دون تردُّد.

لم تكن قادرة على أن تُميِّز إن كانت القصيدة التي قرأت مطلعها في عينيه تحكي عن الحبّ أم الحرب. فقد بدت لها غامضة بعض الشيء. مع ذلك، فقد قالت في سرِّها، إنها ستفهمها أكثر عندما ينتهي من كتابتها.

وهو، الهارب من بلادٍ أنجبت جبران والأخطل الصغير، إلى بلدٍ يلوذ إليه هرباً من أهوال الحرب، إستطاع بدوره أن يقرأ في عينيها الفيروزيتين بداية قصّة تحاول التفلُّت من لجامها، وعبثاً تفلح في التقاط لغتها لتنسكب

سرداً على الورق. ومع ذلك، فقد قال في نفسه إنها ستكون قصّة عظيمة، عندما يبلغ الكلام مُستقراً له!

لم يتحدّثا طوال الرحلة،

لكن صمتهما ظلّ يثرثر دون انقطاع.

هي تحاول أن تنسج قصيدته، فتتعثّر في الإجابة عن سؤال الحبّ والحرب. وهو يحاول أن يتابع سرد قصّتها، فيرتبك السّرد وتمّحي التفاصيل.

***

الآن، وبعد أن مرّ زمن طويل على وصول القطار محطته الأخيرة. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها نهائياً، لتدخل كتاب التاريخ. ورغم أنهما أفلحا في التوصُّل إلى لغة قرّبت بينهما وأنجبت لهما حفنة من الأولاد، الذين كبروا بسرعة فائقة، فكفّوا عن وضع شطائرهم على عجلٍ في الحقائب المدرسيّة، ثمّ انطلقوا بلمح البصر مسرعين، مزوّدين بحقائب كبيرة تتيح للواحد منهم أن يذهب إلى حال سبيله، باحثاً عن أحلامه في القطارات السريعة.

رغم ذلك، ورغم أنه لم يخطر ببال الرجل القادم من بلاد جبران والأخطل الصغير والحرب التي توقفت منذ سنوات، أن يطرح على المرأة العجوز (التي لم تطفيء تجاعيد الوجه ألق عينيها الفيروزيتين)، السؤال الذي أرّقه طوال تلك الرحلة البعيدة ونسيه الآن، حول نهاية القصّة التي شغلته ذات يوم على مقعد في القطار السريع. فقد جاءته المرأة في المساء حاملة أوراقها وهي تقول بسعادة تشعّ من عينيها:

ـ إقرأ، فقد انتهيتُ من كتابة القصّة التي شغلتك طوال الرحلة؟!

تساءل بدهشة:

ـ أيّة قصّة؟!

لم يجد منها إجابة، لكنه وجد نفسه منهمكاً في قراءة القصّة. كانت

بدايتها غريبة عنه، مثل نهايتها المستحيلة.

أمّا المرأة، التي كانت قادرة على أن تقرأ الشِّعر في سحابة عابرة، فقد تردّدت طويلاً في أن تسأل الرجل الذي يتوكأ على عصاه، وكان يمتلك قلباً عارياً وعينين لا تكفّان عن البوح، عمّا إذا اكتملت قصيدته التي قرأت مطلعها هناك.. على ذلك المقعدِ في القطار السريع!

غير أنها امتلكت الشجاعة، أخيراً، فطرحت السؤال الذي ظلّ يشغلها طوال رحلة القطار تلك، المُنزلقة فوق القضبان المتطاولة، ورحلة العُمر التي مرّت كالشّهاب:

ـ هل كانت قصيدة حبّ.. أم إنها كانت عن الحرب؟!

حدّق العجوز في عينيها الفيروزيتين طويلاً وهو يتساءل بدهشة طفوليّة:

ـ أية رحلة؟!

ثم أضاف بعد أن بدا على وجهه ما يشي بأنه تذكّر شيئاً، فتمتم وهو يمنحها ظهره الذي بدا أكثر تقوّساً عن أيّ وقتٍ مضى، مُردداً:

ـ لم تكن هناك، على مقعد القطار السّريع، أيّة قصيدة..

لم تكن هناك.. قصيدة!؟

(20)

سحابة حرب

تحابا لعشر سنوات، أو ما يزيد، قبل أن يعرفا درب البداية.

كانا قد خرجا للتوّ من طفولتهما في إحدى الحارات المتوارية عن الأنظار، عندما تشابكت العيون ذات مساءٍ ربيعيّ، فوقعا في الحبّ. وقد ظلّت اللفتة الخجلى، والحمرة الفاقعه التي تكسو الوجه، والصمت المرتبك، هي الحدود القصوى للبوح!

عندما علا صياح الديك في الظهيرة، واندلعت الحرب بين شرق المدينة وغربها، لتنهمر القذائف على الجانبين، ويلتحم المتقاتلون على خطوط التّماس، جاءت اللحظة. فقد وجدا في الحزب القريب منهما، والذي يرفع شعار تغيير العالم، مكاناً يجمعهما تحت سقفٍ واحد. فكانا يلتقيان حيث يجدر بهما أن يلتقيا: في إطار خليّة حزبيّة صغيرة تنعقد مرّة كلّ أسبوع، في المقرّ المتواضع الذي كان في حارتهما هناك.

لكن الخليّة ما لبثت أن تضاءلت، بفعل تساقط يميني مباغت حلّ بالتنظيم، فقذف ببعض أعضائه خارجاً.

ورغم أن الخليّة أصبحت في النهاية تقتصر على اثنين فقط، هو وهي، فقد ظلّ كلٌّ منهما ينتظر اللحظة المواتية، التي تطلّ من بين جهامة العمل الحزبي وأحاديثه البليدة، فيُخرج الواحد منهما، من القلب، الكلمة المخبأة ليوم لا ريب فيه، ويقول للآخر دون تردد: "أحبك"!

لكن الحرب طالت.

وهما كبرا وكفّا عن اللقاءات الحزبيّة الضيّقة، وأصبحا يلتقيان في مقاهي شارع الحمراء، ويترددان على السينمات هناك بين حين وآخر. ولقد

قيل إنهما أيضاً تساقطا كالآخرين وأصبحا بورجوازيين يمينيين، رغم أنهما كانا آخر المتساقطين.

بعد زمن يكفي ويفيض، امتلكا الشجاعة لترديد الكلمة وهما يرتجفان في ملجأ حارتهما المُعرّضةِ للقصف:

ـ "أحبُّكِ يا رفيقة"!

ـ "أحبُّكَ يا رفيق"!

سنوات أخرى مرّت، تفتّقت خلالها شفاههما عن حشود من مفردات العشق، دون أن يقتربا قيد أنملة من حدود الجسد. فقد خشيا من أن يتلامسا في لحظة تصيبهما فيها قذيفة عابرة، فيرحلان إلى السّماء وهما في حالة عشقٍ مُحرّم!

ولقد احتاجا إلى عشر سنوات أخرى، أو ما يزيد، وهما يقلّبان معاً، دون كلل، فكرة الزواج، بما لها وما عليها. فقررا أن عليهما، في البدء، الشروع في بناء مستقبلهما ليكونا في حجم مسؤوليّة البيت والأولاد. وبذلك، فإنهما يتيحان، في الوقت نفسه، الفرصة للحرب بأن تشهد نهايتها عاجلاً أو آجلاً بفعل عامل الزمن، أو جرّاء إرهاق قد يصيب المتقاتلين كحتميّة تاريخيّة.

هو غادر إلى الخليج وعمل مُدرِّساً..

وهي تحجّبت وعملت سكرتيرة في شركة للاستيراد والتصدير..

وفي تلك السنوات تبادلا آلاف الرسائل الملتهبة بالعواطف والأشواق.

عندما عاد من غربته الطويلة، لم يصرفا هذه المرّة عشر سنوات أخرى من عمريهما ليبلغا مرادهما. فقد باتا على يقين بأن النهاية المنتظرة للحرب، كحتميّة لا ريب فيها، لن تجيء بالسرعة التي تشتهيها سفنهما العاشقة. فقررا الزواج دون تردد.

قال باستسلام:

ـ نتزوج..

فأجابت بقدرٍ كبير من نفاذ الصّبر:

ـ نعم، لقد آنَ لنا أن نتزوج. لن ننتظر نهاية يبدو أنها لن تجيء!

***

كانت قد تجاوزت الستين عندما زُفّت إليه.

أمّا هو، فكان قد تعداها منذ سنوات تبدو له الآن بعيدة.

في ليلتهما الأولى، لم يسألها عن سبب ضمور نهديها وذبول الحلمتين اللتين تشبهان حبتّي زبيب. فهو لم يعرف من قبل كيف يكون نهدا الأنثى مكورين باستدارة متماسكة مهيبة، وكيف تكون الحلمتين كرزتين منتصبتين فوق قمّة ساحرة.

وهي لم تسأله عن سرّ انكماش ما بين الساقين، لأنها لم تعرف من قبل شيئاً آخر شبيهاً يصلح لأن تستحضره في خيالها، ولو لمجرّد المقارنة. ثم إنها، في الحقيقة، لم تكن تفكِّر يوماً في ما لدى الرجال هناك، ولا تعرف شيئاً عن التمدد والتقلُّص الذي يُصيب تلك البقاع المجهولة بالنسبة لها. فهي لم تفكِّر طوال حياتها إلاّ بهذا الرجل الذي لا شريك له، والذي لا تُنكر بأنها تعشقه بلا حدود، دون أن يحدث يوماً أن احتكت به أو احتك بها، حتّى في عزّ شبابه وذروة اشتعالاتها الأنثويّة. ثم إن تفكيرها كلّه ظلّ محصوراً، طوال تلك السنين، في شيء واحدٍ، هو الانتظار الممض لنهاية الحرب.

***

لقد شعرا، بعد فوات الأوان، أن سنوات عمرهما قد انقضت في سحابة حرب..

فقد مرّت حتّى الآن عشر سنوات، أو ما يزيد، على زواجهما السعيد، دون أن يخطر ببالهما أن يطرحا على نفسيهما السؤال عن السر الخفي الذي حال دونهما ووجود ولد يؤنس وحدتهما.

ولكن يبدو أنهما، دون حاجة إلى إعلان، ومن غير اتفاق مُسبق، كانا قد استسلما لفكرة عدم الإنجاب، واقتنعا بأن فرصة العُمر قد تجاوزتهما.. حتّى

لو حدثت المُعجزة ووضعت الحرب أوزارها!

والحقيقة التي كان يبوح بها كلّ منهما لنفسه وفي نفسه، هي أنهما لم يكونا بحاجة أصلاً للخلف الصالح الذي يؤنس وحدتهما، لأن وحدتهما لم تكن بحاجة إلى أنيس!

***

فلعشر سنوات أخرى قادمة، أو ربما أكثر، سيبقى الزوجان اللذان باتا ينحدران شيئاً فشيئاً، وفي خلسة من الزمن، نحو الكهولة، يمارسان في كلّ صباح الأمر ذاته: يستيقظان في الفجر، يؤديان على عجل طقوس بدايات النهار صامتين، ثم، وعلى وقع رشفات قهوتهما الساخنة، يستفيضان في أحاديثٍ لا تنتهي..

هي تروي له مناماً رأته في الليلة الماضية..

وهو يروي لها مناماً رآه..

والغريب حقاً، أنه كان يحدث، في كثير من الأحيان، أن يروي هو حلمها، فيما تُسهب هي في رواية حلمه!

وفي مرّات أخرى، لم تكن نادرة، كان الإثنان يرويان مناماً واحداً تقاسماه في تلك الليلة، بكل أحداثه الكبيرة وتفاصيله الصغيرة المُملّة.

وغالباً، غالبا ما كان منام الإثنين يدور في زمن آخر..

زمن غابت فيه عن سماء المدينة سُحُب الحرب!

(21)

كم كانوا ظرفاء

كانوا ظرفاء ..

لم يجيئوا أول الفجر، ولكنهم تأخروا قليلا. فلفرط تهذيبهم ونُبل مشاعرهم ورقة أحاسيسهم، شاءوا أن يمنحوني فرصة للاستمتاع بسحابة أخرى من النوم والدفء وورد الأحلام.

ولو لم يجيئوا، في هذا الوقت تماما، لكنت قد استيقظت من تلقاء نفسي، مثل عادتي اليومية، التي يبدو أنها خضعت لدراستهم، ومُنحت ما يكفي من فائق عنايتهم، كي لا تمس شعرة من مشاعري التي يقدرون رقتها، وهشاشتها، وقابليتها للكسر!

وقد كانوا ظرفاء..

قرعوا الجرس بحياء، درءا لاستثارة الارتياب الذي قد يجرح سكينة الفجر ويخدش طمأنينة القلب. فكانوا مثل ضيف شديد الحياء يعرف من تلقاء نفسه أنه ثقيل الظل إذ يأتي في مثل هذا الوقت.

ولفرط تهذيبهم، الذي فطرهم الله عليه، فإنهم لم يكرروا قرع الجرس، حيث بدا لهم رنينه عاليا ومزعجا للشّخص الذي جاؤوه بعد الفجر، ولزوجته، وللجيران السّادرين في نومهم، على السّواء. نقروا الباب بخفة تعهدها أصابعهم الرقيقة، فبدت مثل دقات مرتابة، حيية، لعذراء تتسلل خلسة إلى بيت الحبيب.

فتحتُ الباب.

رأيتُ وجوهاً تطفح وسامة.

كانوا كلهم باسمين، فألقوا السكينة في قلبي المسكين، الذي يتوثب من

سماع رنة أبرة على البلاط.

بتهذيب شديد طلبوا دخول البيت، بعد إذني بالتأكيد، معتذرين عن إفسادهم بكارة اليوم، وعن اضطرارهم جرح شعاع الفجر الأول. ثمّ قالوا بأدب جم أن لديهم أمرا بتفتيش البيت درءا لمفاسد ألسنة السُوء. وأطلعوني شاكرين، على الأمر.

دخلوا البيت مزملين بالخجل، من قمة الرأس وحتى أخمص القدمين، يسبقهم اعتذارهم الذي يتردد صداه في أرجاء البيت ويمسّ القلب.

ثم كرّروا اعتذارهم لزوجتي التي كانت قد استيقظت مفزوعة، مؤكدين لها بأنهم سوف يعيدون كل شيء في البيت إلى مكانه:

ـ فلا تقلقي سيدتي.

وحقا أنهم كانوا ظرفاء.

.***

قلبوا الكتب بانحناءة خفيفة لنتاج العقل والوجدان، ولم يبعثروها. تأملوا تمثالاً صغيرا للينين القابع في الزاوية. تأملوه بحسّ جمالي مرهف وإحساس شفيف. وقد تركوه في مكانه، فلم يعتبروه مستمسكا لاتهامي بالشيوعية. وإلى مسافة قريبة منه، تأملوا نسخة قديمة ونادرة من القرآن الكريم، قلّبوها بأصابع خاشعة تكتنفها الرهبة، ثم أعادوها إلى مكانها دون تعليق، فحمدت الله على أنهم أعفوني من تهمة الانتماء إلى إحدى الجماعات الإسلاميّة التي تمارس الإرهاب.

أخذوا يطوفون أرجاء البيت،

وكانوا ظرفاء..

توقف أحدهم عند حوض الأسماك الصغيرة الملونة مبتهجا بالمشهد، ثم سأل زوجتي عمّا تطعمها،. فطفلي، قال:

ـ.. يُلَح عليَّ بأن أجلب له حوضا وأسماكا ملَونة، لكنني لا أعرف ماذا

يطعمونها؟!.

وكان آخر يصيح:

ـ عصافيركم تكاد تموت من العطش. هل انقطع الماء من الدنيا؟

وأضاف بلهجة مؤنبة:

ـ ماذا كنتم تفعلون بها أيّام الحصار؟

ثم ذهب ليعود بقليل من الماء وضعه للعصافير، التي أقبلت عليها وهي تُسقسق، كمن عثر على واحة في قلب الصّحراء.

في تلك الأثناء، كان ثالثهم مستغرقاً في تأمُّل شجرة الأرز القابعة في حديقة القصر المجاور وهو يقول:

ـ كأنها شجرة أرز. إنها تشبه الأرزة تماماً!

ثمّ أردف متسائلاً:

ـ وهل يعيش الأرز دون أن يتساقط عليه الثّلج؟!

***

حقا،

لقد كانوا ظرفاء..

وليس لديَّ إلا أن أعترف بذلك، بكلّ أمانة وإخلاص، ولن أغيّر رأيي مهما تعرضت للضغوطات.

كانوا ظرفاء..

يا الله كم كانوا ظرفاء..

أتذكرهم الآن. وهم لم يغيبوا عن بالي أبداً عندما كنتُ أقبع في زنزانتي الضيقة، المعتمة، الباردة، التي اقتادوني إليها في ذلك الصباح البعيد.

(22)

سرّ بطرس طنوس

كل الأسرار في "القاووش" كانت عارية أمام العيون الذابلـة، إلاّ سرّ "بطرس طنّوس"!

دون أن أطرح السؤال، أفصح لي "محمود البعلبكـي"، منـذ اللحظـة الأولى التي حللت فيها ضيفاً على القاووش، عن سرِّه الـذي لم يكـن دفينـاً على الإطلاق:

ـ تجارة الحشيش!

أدركتُ منـذ لحظتـي الأولى في القـاووش، أن مـن أبـرز تقاليـد هـذا المكان، أنه لا يُكرِّم نزلاءه الجُدد. فالقادم الجديد يحتـل المكـان الأقـرب إلى المرحاض، الذي ينفتح بابه على عتمة داكنة تتسرّب منهـا روائـح كريهـة، وتسمع في أغوارها خشخـشة فئـران استأنـست المكـان وبنـت جحورهـا الآمنة هناك، بعد أن تيقنت، بفطرتها، أن جيرانها من الموقـوفين لا يقـوون على مقاومتها.

والموقوف الجديد لا يتحرّك من مكانه الذي لا يُحسد عليه، إلاّ إذا مـنّ الله على القاووش بضيف آخر أكثـر جِـدّة. حينئـذٍ، يحتـل القـادم الأخـير المساحة الأقرب إلى المرحاض، ويتقدّم الأقدم نحو الداخل مساحة لا تزيد عن عرض جسده.

ـ عفواً أستاذ.. شو التهمة؟

سألني البعلبكي.

لم أكن قد عرفت تهمتي بعد. بل إنني في الحقيقة ما زلتُ أجهلها حتّـى الآن، بعد سنوات طويلة من مغادرتي ذلك المكان الذي قضيتُ فيه أسبوعاً

أو ما يزيد. كلّ ما أعرفه أنهم جاءوا عند الفجر، بعد أسابيع قليلة من انتهاء الحرب والحصار، وساقوني مكبّلاً بعد أن فتشوا البيت.

سألني المحقق أسئلة عاديّة تتعلّق بهويّتي، وبشرعيّة إقامتي، وأمر بوضعي في زنزانة انفراديّة باردة لم ألبث فيها طويلاً، ثمّ نقلوني إلى ونسة القاووش ودفئه بالبشر، دون أن تتحدّد تهمتي بعد.

اكتفيتُ بالرد على سؤال الرجل الذي يرغب في معرفة أسباب اعتقالي بالقول:

ـ فلسطيني!

في البداية، أغاظني أن أن يتقبّل البعلبكي بسهولة أن تكون فلسطينيّتي تهمة بحد ذاتها، مقنعة وتستحق الإعتقال، مثل الاتجار بالحشيش على سبيل المثال، ولم يضطرّ لأن يسأل إن كان ثمّة تهمة أخرى تُعزِّز الأولى.

بعد أن عرّفني بسرّ حبسه، روى لي البعلبكي الكثير عن خفايا وأسرار زراعة النبتة السحريّة في البقاع، وكيف تتشكّل الزّهرة.. زهرة الحشيش، من ذرّات الغبار المتطاير العالق بأجساد النساء والمستقر فوق ملابسهن، بعد أن ينهلن بعصيِّهن ضرباً على كومة الحشيش التي جفّت وجرى جمعها في غرفة مُغلقة لا تنفذ منها ذرَّه واحدة.

ثم استفاض في الحديث عن كيفيّة اعتقاله في ألمانيا، عندما توجّه مع صديق له إلى هناك وفي يد كلّ منهما حقيبة استبدلت حشوتها بطُرَب الحشيش:

ـ مرّ صديقي من نقطة التفتيش في مطار فرانكفورت، وعندما جاء دوري، أمسكوا الحقيبة وكأنهم على علم مسبق بمحتواها. شقُّوها بمشرط، فتدفقت كميّات الحشيش من أركان الحقيبة ومن قعرها. راقبني صديقي عن بُعد وهم يسوقونني بالأغلال. لكن الرجل كان في الحقيقة شهماً ونِعم الصّديق. فهو طوال السنوات التي قضيتها في السجن الألماني لم

يتخل عني. لقد جعلني أعيش هناك كملك. الناس للناس، والذين هم مثلنا، أستاذ، عندهم أخلاق حميدة، وليس كما تظنون!

قدّم لي سيجارة، وأشعل أخرى وهو يواصل حديثه دون انقطاع:

-.. الذين اعتقلوني في المرّة الأخيرة هنا، من رجال الدّرك والمباحث، ليس لديهم أي نوع من الأخلاق. تصوّر، كنتُ قد أحضرت لزبون أتردد عليه في شقّة مفروشة في شارع الحمرا واحدة من أفضل قطع الحشيش. زهرة من تلك التي لا تتمناها إلاّ لنفسك ولأعز أحبابك. قطعة بحجم حبّة كمأة كبيرة. وعندما دخلت الشقّة هناك، عاجلوني بقبضاتهم. ألقي القبض عليّ وبيدي قطعة الحشيش. وفي مخفر الدرك الذي ساقوني إليه، قالوا للضابط أنهم قبضوا عليّ بالجرم المشهود.. حيازة الحشيش! ثم أخرجوا المستمسك. نظرتُ إلى قطعة الحشيش التي عرضوها، فإذا بحجمها قد تقلّص إلى حجم حبّة تين جافّة صغيرة، وكانت من الأنواع الرديئة التي لا يسمح مزاجي بتعاطيها ولا أخلاقي بالاتجار بها. العمى بقلبُن.. سرقوها.. سرقوا القطعة الكبيرة واستبدلوها.

***

"سعيد الشامي"، الأعتق إقامة في القاووش، والذي حلّ فيه منذ أكثر من تسعين يوماً، عيّنته إدارة السجن، أو أنه هو الذي عيّن نفسه، مسؤولاً مشرفاً عاماً على المكان ونزلائه. اعتذر لي أوّل دخولي لأن تقاليد القاووش تقتضي وضعي إلى جانب المرحاض، غير أنه طمأنني بأن ضيوف القاووش يتزايدون في المساء، وسيحل أحدهم محلي.. وسوف أزحف في النهاية بعيداً عن ذلك المكان وروائحه الكريهة. ولم يكن يعلم أن الروائح، على حموضتها القاتلة، لم تكن هي التي تزعجني، وإنما الأصوات الصّادرة عن تحرُّكات الفئران المريبة في العتمة.

ولكي ينفي الرّجل عن نفسه تهمة خطيرة، أو من تلك التي لا تستحق

الاحترام، أماط اللثام عن سره، دون استفاضة في شرح التهمة:

ـ لا شيء يستحق الحبس.. شيك بدون رصيد أعطيته لشركة الـ "بيجو". أخذت السيارة ولم يكن في رصيدي ما يكفي.. هذه كلّ الحكاية.

وأنهى الشّاب "ناصر البسطاوي" حكايته حول أسباب وجوده وهو ينفجر في البكاء:

ـ أنا والله العظيم لم أقتلها. أنا ضاجعتها فقط.. "الزغلول" هو الذي قتلها بعد أن انتهى منها. الزغلول هددني بالقتل إن لم أقل إنني أنا الذي قتلتها!

ـ ومن الزغلول هذا؟

بدا سؤالي ساذجاً وأكثر حماقة مما كنت أتصوّر:

ـ ألا تعرف الزغلول؟!. هل قلت أنك عشت في بيروت عشر سنوات؟ عشر سنوات ولم تسمع عن الزغلول؟!

وقال شاب صغير من الأشرفيّة يجلس إلى جوار البسطاوي:

ـ اتهموني بسرقة "موتوسيكل".. العمى بعيونن.. ولك أنا لمّا بدي أسرق.. باسرق سيّارة بالمرّة!

***

بالقرب منهما، كان ثمّة شاب تشي ملامحه بأنه من الهند.. سيريلانكا.. الباكستان، أو واحدة أخرى من تلك المناطق الطافحة بالميلودراما.

كان يتكئ بظهره على الجدار ويرفع كفّيه إلى السماء مبتهلاً ومتمتماً بنداءات غامضة، فيما الدموع تنهمر من عينيه بغزارة، وكأنه اتخذ قراراً تراجيدياً لا رجعة عنه.

بدا الوضع وكأنه مشتق من مشهد مبتذل لواحدة من تلك الأفلام الهنديّة المغرقة في بؤس العواطف المبتذلة. وقد انشغلت بالتفكير في السؤال

إن كان الفتى يجيد فنّ التمثيل أم أن ما يبدو لنا من ميلودراما في أفلامهم هي تعبير عن واقعيّة مفرطة؟!

انتشلني سعيد الشامي من ترف البحث في مسألة كهذه، حين لاحظ استغراقي في تأمل الفتى المتشّح بالحزن والبشرة السمراء:

ـ لم نتمكّن من التفاهم معه، ولم نعرف اسمه. حاولنا أن نعرف، لكننا كنّا ننساه بعد لحظة، أو إننا كنا نخطىء في لفظه، وتسهيلاً للأمر، سميناه.. "سانجام".

وقال الشاب الذي لم يسرق الموتوسيكل:

ـ إنه يتحدّث بلغة غريبة، ثمّ يردِّد كلمة واحدة حفظناها لكثرة ترددها.. "إنجلش.. إنجلش". هل تعرف الإنجلش يا أستاذ؟!

وجاءني صوت من الخلف يتردد ملحاحاً:

ـ نريد أن نعرف سرّ سانجام!

استنفرت على الفور إنجليزيتي المتآكلة بالنسيان. تحدثت معه بانجليزيّة واهنة بدت لهم واثقة. وكانت العيون المندهشة معلّقة بشفتيّ ووجه سانجام المخضّل بدموع لا تكف عن الانسياب، فيما تدفقت كلماته كعيونه التي تسحّ دمعاً ساخناً، وكان رجال القاووش، رغم جهلهم باللغة، قادرين على رؤية انكساراتها وأحزانها الغائرة.

لم أكن سأفهم نصف حديثه لو إنه سرد عليّ قصّته بانجليزيّة سليمة، فما بالك بلكنتها السيريلانكيّة واحتلال كلمات من تلك اللغة مساحة لا بأس بها من السّرد، ناهيك عن الشهقات المتلكئة التي كانت تَقطَع تدفُّق الحكاية، وتقطِّع معه نياط القلب.

مع ذلك، فقد أصغيت لحديثه المطوّل بكل جوارحي، وبدرجة عالية من التركيز. ألقيت نصفه في البحر كيّ يتبقى من الرواية ما ينفع الناس. ونصف النصف ضاع في جهل اللغة الانجليزيّة، ونصف ما تبقى ضاع مع

السيرلانكيّة التي أقحمت نفسها عنوة. وبما تبقّى صغت لهم زبدة الحكاية:

ـ.. نتيجة للحرب والحصار واجتياح الإسرائيليين بيروت، لم يتمكّن سانجام من تجديد إقامته وإذن عمله، فقبضوا عليه بهذه التهمة، وقالوا له أنت تقاتل مع الفلسطينيين. إنه يبكي بحرقة لأنه لم يُقاتل يوماً لا مع الفلسطينيين ولا مع غيرهم، ولأنهم سيبعدونه عن البلاد دون أن يتيحوا له فرصة المرور على بيته لأخذ أغراضه والهدايا التي اشتراها لخطيبته وأخواته الخمس بعرقه وشقاه طوال سنتين من إقامته في هذا البلد.

كان الجميع في القاووش يصغون إليّ وكأنني كشفتُ لهم عن كنزٍ من الأسرار ظلّ مغلقاً لأمد بعيد. غير أن الرواية التي ذرف بطلها كلّ هذا القدر من الدموع لم تكن بحجم التوقعات:

ـ إذاً.. هذا هو كلّ سرّ سانجام!؟

قال أحدهم..

وأضاف آخر، بدا وكأن إمكانياتي اللغويّة قد استثارت إعجابه أكثر من الحكاية نفسها:

ـ أنت يا أستاذ متمكن من اللغات. يبدو أنك درست ذلك في الجامعة.

أجبت بتواضع وحياء:

ـ لا .. أنا لا علاقة لي باللغات. درست في الجامعة علم النفس.

في تلك اللحظة، سمعت صرخة قادمة عن بُعد، تشبه نبرة ذلك العالم الذي صاح ذات يوم.. "وجدتها.. وجدتها!":

ـ علم النفس؟! إذاً.. فأنت الذي سيعرف لنا سرّ بطرس طنُّوس!

وقد كان عليّ، طوال الأيّام التي قضيتها بعد ذلك في القاووش، وتأكيداً لشدّة أستاذيتي بين هذا الرهط القادم من قيعان مدينة هبطت أحوالها في الحرب إلى قاع القاع، أن أكرِّس نفسي، بما أوتيت من علم

نفس، للبحث عن سرّ بطرس طنّوس!

***

سألت عمّن يكون الرجل الذي يحمل هذا الاسم، فأشاروا إلى كتلة متضائلة تقبع في زاوية نائية من القاووش.

لم يكن بطرس طنّوس إلاّ جسداً واهناً، هرِماً، يكاد يختفي تحت بطانيّتة الرماديّة المتآكلة التي كان يتلحّف بها، كأنما يُداري برمادها رأسه وسرّه. ولم يكن في وضعيته المنكمشة تلك ما يُحرِّض على الأسئلة.

غير أن رجال القاووش الضجرين، الذين منحوني ثقتهم، فرضوا عليّ تلك المهمّة التي قد تسهم في قتل أوقاتهم البليدة المتلكئة.

ومن قبيل الممهدات الأولى لانطلاقة البحث عن سرّ بطرس طنّوس، الذي بدا للجميع أنه ألقاه في بئر سحيقة وأضاع الطريق إلى البئر، سلخت وقتاً طويلاً كنت أصغي فيه لاجتهادات الزملاء، وللأقوال المتضاربة التي ظلّوا يدلقونها، وكانّوا جميعاً يؤكدون، بعد كلّ رواية تتضارب مع الأخرى، أن العلم عند الله.. الذي وحده يعلم سرّ بطرس طنوس وما يخفى:

ـ يقولون إنه عميل لإسرائيل. سمع الجيران صوتاً ينبعث من جدران بيته وهو يتحدّث بالعبريّة. كان ذلك ليلة المذبحة في صبرا وشاتيلا. وعندما داهموا بيته، أمسكوه وهو يتحدّث بالجهاز.

ـ ولك العمى بعيونك.. لو انه عميل لإسرائيل ما بيكون هون.. لكان بيكون هناك.. معزّز مكرّم.

ـ بيقولوا إنه كان بيشتغل مع الكتائب، ولّما الأحرار تبعين شمعون اشتروه.. قام الكتائب ورّطوه وجابوه لهون!

ـ ولك وطي صوتك.. بلا من تحليلات ما إلها طعمه.

ـ بيقولوا إنه كان يقدِّم معلومات للفلسطينيين، ولّما الفلسطينيين

طلعوا من بيروت بالسفن..

ـ وانت التاني.. كول هوا واسكت.. خلّي الأستاذ يحلل نفسيته. هو يعرف شغله بدون حكيك الفاضي.

***

نمت ليلتي الأولى بعد أن تسنى لي أن أكون بعيداً عن المرحاض، وبقرار استثنائي صدر عن سعيد الشامي، بدا لي أنه ينم عن احترام لقدراتي الدفينة التي ستكشف ما تخبئه السرائر. نمت وأنا أتدثّر بسرّي العاري، فلسطينيتي المثيرة للشبهات، والتي تكفي وحدها لسجن لا يبعث على الدهش ولا يثير الاستنكار.

وحتّى لا أنشغل بالوقت الذي يمرُّ عليّ بطيئاً، قرّرتُ أن أكرِّس وقتي لأسعد الآخرين في الكشف عن رواية بطرس طنّوس وسرّه الدفين، فأعوِّضهم عن النكسة التي داهمتهم والإحباط الذي أصابهم بعد معرفتهم رواية سنجام.. التي رأوا أنها لم تكن تحفل بأحداث جسام تستدعي كلّ هذا القدر من الدموع.

عندما استيقظت في الصباح، كان البعلبكي منفعلاً، ويصرخ بأعلى صوته:

ـ لَكْ... إخت هيك سجن. بأطلب يشترولي شيكولاته "مارس".. بيجيبولي "شيكوبرنس"، هن اللي بدُّن ياكلوا والاّ أنا؟!

وكان الشامي يهدئه مذكراً إيّاه:

ـ كلها وانت راضي..انت في سجن، والا بتظن نفسكّ بتتجوّل في "سبينس" وحَدَّك حبيبتك بتتدلل عليها. كلها ولا تزيدها.. والاّ بيطعمونا هوا كلنا؟!

لم يحل احتجاج الشيكوبرنس دون نظراتي الفاحصة التي لم ترتفع لحظة عن بطرس طنّوس.

كان أوّل ما فاجأني في ذلك الصباح، أن اسم بطرس، الذي ارتبط طويلاً في ذهني بالأباطرة والقياصرة العِظام، يمكن أن يحمله جسد رجل في هذا الهزال والوهن والضمور البالغ حتّى بروز العِظام. رافق ذلك اهتزاز علاقتي التقليديّة بحرف الطاء. فقد كنتُ، ومنذ طفولتي المبكِّرة، أعتقد أن كل المفردات التي يبرز فيها حرف الطاء لا بدّ وأن تكون مفرطة في الضخامة والامتلاء، كوقع الحرف على ألسنتنا. لم أكن أتصوّر مثلاً أن يحمل طفل ما اسم "طه" أو "بطرس".. ولم أكن قادراً إلاّ أن أرى في كلمة الطاووس طاووساً منفوش الريش، لا يمشي إلاّ ملكاً متبختراً فوق أديم مملكته، حتّى قبل أن تتاح لي فرصة مشاهدة حقيقيّة للطاووس في إحدى حدائق الحيوان.

لقد بدا لي بطرس، الذي شارف على السبعين أو تجاوزها قليلاً، رغم إيقاع الكلمة، كياناً هزيلاً لا يليق بعظمة الاسم، رجلاً أعياه الزّمن وبرد السجن. كتلة من العظام المنهوكة التي منّ الله عليها بالحد الأدني من كساء اللّحم.

رأيته في المرّة الأولى مثلما رأيته في كلّ المرّات التالية، يترنّح بين الأجساد المتراصّة على أرضيّة القاووش متجهاً نحو الحمّام، بخطوات متهالكة، متكئاً على وهم عصاً لم تكن في يده. يكاد يسقط، فيتكيء على العصا الغائبة، فيستقيم فجأة، وإن بدت استقامته غير مستقيمة.

***

شاءت الصُّدف، أو شاءت ترتيبات قد يكون مصدرها مسؤول القاووش، أن يلتصق فراشي بفراش بطرس طنّوس، ما جعلني أعتقد أنني بتُّ قاب قوسين أو أدنى من الكشف عن سرِّه المخبّأ في حرز حريز.

لقد ظننت لوهلة، في غمرة الحركة الدائبة التي تعمّ المكان، ما بين استقبال ضيوف جدد ووداع آخرين أشرقت عليهم شمس الحريّة، أن

الذين كلّفوني بالكشف عن السِّر، قد نسوني ونسوا مهمّتي التي باتت تؤرقني.

استجمعت شجاعتي المخبوءة لمثل هذه اللحظة، لأقترب منه أكثر، ثمّ طرحت عليه سؤالي الذي اعتقدت أنه سيفتح بيننا دروب حوار مُغلقة، ويُعري القلوب المتدثِّرة بأغطية سميكة:

ـ عمّ بطرس.. هل تحب الفلسطينيين؟

ـ لا بحبُّن ولا بكرهّن.

ـ وهل تحب الإسرائيليين؟

ـ لا.. لا.. ما بحبُّن. عمري ما حبيتن!

ـ والكتائب؟

ـ عمري ما كنت معهن ولا ضدُّهن.

ـ وجماعة شمعون؟

أجاب بنفاذ صبر:

ـ كلّ الناس عالعين والراس. شو اللي بدّك اياه مني؟!

استجمعت شجاعتي للمرّة الثانيّة، ولم يكن ثمّة مجال للمراوغة، ووجدت أن السبيل الوحيد أمامي ليس إلاّ السؤال المباشر:

ـ عمّ بطرس.. لشو إنت هون؟!

حدّق فيّ مليّاً وقال:

ـ بيقولوا عنّي جاسوس. ما بدري للإسرائيليّة.. للفلسطينيّة.. للكتائب والا لغيرهن؟

ـ من هم؟

ـ هَوْلي اللي حواليك.

ـ وانت شو بتقول.

ـ خليهم يقولوا اللي يقولوه، أنا ما عندي شي قولُه!

ثمّ أخرج من تحت مخدته برتقالة، قدّمها لي وهو يقول:
ـ الأفضل أن تنام!

تناولتُ منه البرتقالة، ورأيته يستجمع أطراف بطانيته ثم يتكوّر في مكانه، يغمر رأسه في رمادها ويغرق في النوم. فيما بقيتُ مستيقظاً، ولم أنم إلاّ بعد ساعات طويلة. وقد تكرّر الأمر مرّات عديدة في الأيّام التالية. فما أن أستجمع نفسي وأطرح السؤال، حتّى يُسارع بمنحي برتقالة.

في الليلة الأخيرة، تناولت منه حبّة البرتقال، وقد اتخذتُ قراري النهائي برفع الراية البيضاء أمام بطرس طنّوس!

***

عندما سمعتُ أحد ضبّاط السجن يهتف باسمي عبر الطاقة الصغيرة ذات القضبان المتطاولة، انتفضتُ واقفاً وأنا أنظر إليه متسائلاً بصمت. فسمعتُ صاحب الصّوت يهتف آمراً:

ـ تجهّز، فقد حان وقت تسفيرك. خلال دقائق قليلة تكون جاهزاً.

لم أكن أعرف شكل الجاهزيّة المطلوبة. فمنذ أكثر من أسبوع لم تتح لي فرصة خلع ملابسي، فلم يكن عليّ سوى أن أنتعل حذائي لأكون مستعداً للرّحيل.

جلستُ في الزاوية القريبة من الباب، لأنهمك في عقد ربّاط الحذاء، عندما اقترب منّي بطرس طنّوس دون توقُّع، ليربت على كتفي مودِّعاً.

حدّق في عينيّ طويلاً ثم قال متسائلاً:

ـ هل ما زلت تريد معرفة سرّ وجودي هنا؟!

عُدتُ إلى تذكير نفسي بأنني اتخذتُ قراراً نهائياً، قبل أن أغفو، برفع رايتي البيضاء، مُعلناً استسلامي الكامل في معركة الكشف عن السرّ المخبوء في الأغوار السّحيقة للرجل العجوز. ولم أكن مضطراً للإفصاح عن هزيمتي أمام الآخرين، إذ يبدو أنهم كانوا يرون، بعيونهم التي

يدارونها، راياتي المنكسرة. وربما لذلك، كفّوا عن سؤالي حول إذ ما كنتُ قد تمكنت من كشف السرّ.

قلت له:

ـ لم يعد الأمر مُهمّاً بالنسبة لي. يمكنك أن ترويه لهم إذا أردت.

لم يحفل بإجابتي. قال وهو يتهيّأ للإفصاح عن ذلك الشئ الذي يطويه في صدره:

ـ بما أنّك ستغادرنا بعد قليل، ولن يكون في مقدورك أن تروي لهم، فسوف أفصح لك عن سرّ وجودي هنا.

يبدو أنه لم ينتبه إلى التهيؤ الذي انتابني، فأوقفني عن مواصلة ربط الحذاء، رغم الادعاء الكاذب بانتفاء الاهتمام لديّ، فواصل قائلاً:

ـ ليس في الأمر بطولة، كما يتوهّم البعض، أو خيانة كما يتقوَّلون. كل ما هنالك هو الضعف الذي ينتابنا، نحن الرجال، الجنس الضعيف من بين خلق الله، أمام الغوايات الشيطانيّة الكامنة في الخطوط المنحنية لجسد المرأة!

ثمّ تابع حديثه، بما أوتي من قدرة على الاختزال، كأنما ليستثمر الوقت القليل الذي تبقى لي لمغادرة المكان، فروى لي كيف استفزّته انحناءاتها وهي تمسح أرضيّة المطبخ. توقدت عيناه بالشهوة وهو ينظر إليها كاشفة عن جزءٍ من ساقين أبيضين يستدرجانه. اشتعل الدم في جسده هياجاً، وأصغى إلى لهاث صدره المحموم عندما تقدّم نحوها غير هيّابٍ للنتائج. ولا يدري من أين واتته القوّة، ليرفع عنها ملابسها من الخلف، ويعاجلها بذلك الشئ الذي انتفض فجأة من رماده مثل رُمح. حاولت مقاومته بشدّة، غير أنه كان يُخضعها بقوّة نبتت في لحظة مباغتة في ساعديه الضامرين. تشبّث بها كما الضواري تتشبّث بطرائدها. كانت تقاومه فيزيد إطباقاً على منطقة فمها الذي يحاول أن يُفلت صرخة استغاثة. ولم يتركها

إلاّ بعد أن بلغ قمّة الجبل السحريّ هناك، ليشهد بعد هنيهة خاطفة، سقوطه معها على الأرض!

توقف بطرس طنوس عن سرد حكايته. وقد تردّدتُ بعض الشيء قبل أن أطرح عليه السؤال:

ـ من هي؟!

قال بعد توقفٍ كنت أحسبه سيطول، فيأزف وقت رحيلي قبل أن أسمع إجابته:

ـ إنها أخت زوجتي.. أختها الصغرى. كانت تعيش معنا في بيتنا في الأشرفيّة، منذ ذلك اليوم البعيد الذي فقدتْ فيه أهلها في انفجار قذيفة هاون سقطت على بيتهم في سنّ الفيل، وكانت لحسن حظّها آنذاك، أو لسوئه، خارج البيت. لم أنظر إليها من قبل نظرة متشهية. ولكن لا أدري ما الذي حدث لي في تلك اللحظة. انقلب كياني وأنا أرمقها، كأنما طائر النار انبثق فجأة ليرفرف بأجنحته الملتهبة في أرجاء بدني؟!

صمت طويلاً، وخلته وقد تردّد دهراً قبل أن يضيف:

ـ أنا ضاجعتها، ضاجعتها، ولم أقتلها!

ثمّ تطلّع في عينيّ المندهشتين، وهو يقول:

ـ لم أقتلها. أنا لم أقتلها. ضاجعتها فقط.

ثم التفت نحو ناصر البسطاوي وهو يقول:

ـ الزغلول.. الزغلول هو الذي قتلها!

تساءلتُ باستغراب:

ـ الزغلول؟!

ـ نعم، لا أشُكّ في أن الزغلول هو الذي قتلها.

وكان عليّ أن أطرح عليه السؤال:

ـ وكيف جاء الزغلول من البسطة إلى الأشرفيّة؟!

كأنما كان ينتظر مثل هذا السؤال، فقال بثقة:

ـ هناك زغلول آخر في الأشرفيّة، وهو غير زغلول البسطة. في كلّ مكان في بيروت.. هناك زغلول!

عندما سمعت اسمي يتردد مجدداً عبر الطاقة ذات القضبان الحديديّة المتطاولة، رغبت في أن أستثمر الثواني الأخيرة من الوقت الهارب، فأطرح السؤال الذي كان يراود طرف لساني بإلحاحٍ:

ـ حقيقة.. ألم تقتلها؟!

نظر إليّ مبتسماً، دون أن ينبس بكلمة. أخرج من جيبه برتقاله وناولها لي، ثم قفل عائداً إلى مكانه دون أن يلتفت خلفه.

ألقوا بي موثقاً في الكرسي الخلفي لسيّارة الجيب التي حملتني بعيداً.

كنت مكبّلاً بأصفادي، متشبثاً بسرّي الدفين.

وكانت عيون حرّاسي تطرح أسئلتها بإلحاح، عن سرّ البرتقالة التي منحها لي بطرس طنّوس في اللحظة الأخيرة!

(23)

شُرفة على شجرة الأَرز

فجعني ما آلت إليه أحوال العمارة التي تطلّ طوابقها الأخيرة على قصرٍ منيف، تنهض في حديقته شجرة أرزٍ كبيرة، قد تكون الوحيدة في بيروت.

لم أكن قد رأيت شجرة أرزٍ قبل أن أسكن تلك الشّقة، فكلّ محاولاتي والأصدقاء الذهاب إلى منطقة الأرز، المُكلّلة بالثلج، في الشمال البعيد، باءت بالفشل. لكنني عندما جئت لاستئجار الشقّة، قبل سبعة عشر عاماً، رأيتُ من الشرفة الصغيرة شجرة باسقة، عرفتُ دون أن أسأل، أنها هي ذاتها.. شجرة الأرز!

كنت أمنّي النفس، وأنا أقف أمام العمارة بعد غياب، بدخول الشقّة رقم 2 في الطابق السابع، حيث كنت أسكن. وهي الشقّة التي غادرتها مُكرهاً قبل اثنتي عشرة سنة، عندما اقتادوني منها إلى السِّجن، ومنه إلى خارج البلاد. ولطالما حلمتُ، طوال سنوات الغياب، بأن أقف دقيقة على الشُّرفة، لألقي نظرة على شجرة أرز قد تكون الوحيدة في بيروت، لطالما حرصتُ على أن أستقبل صباحاتي وأتأمّل مشهدها البديع، بأغصانها العريضة التي تشبه أجنحة طائر الرُّخ.

كان مدخل العمارة مغموراً بعِتمة خفيفة حالت دوني والاقتراب من المصعد القابع هناك، ما أوحى إليّ بأنه كان معطّلاً منذ وقتٍ طويل.

تساءلتُ في نفسي: من أين جاء كلّ هذا الشحوب؟ ومتى حلّ في المدخل الذي ظلّ وضيئاً في الماضي وفي ثنايا الذاكرة؟!

ثمّة أضواء جانبيّة يغزوها الغبار المتراكم. لكن العتمة كانت قادرة على هزيمة كلّ أثرٍ للضوء الخافت المتسلل من أمكنة مجهولة.

***

عندما أطلّ حارس المبنى، كان شخصاً آخر غير الذي كنت أعرفه. وتأكيداً على علاقة قديمة تربطني بالمكان وسكانه، سألت الرجل عن "حسن"، الحارس القديم للمبنى. فقال الرّجل بانفعالٍ باردٍ بدا محايداً أكثر من اللزوم:

ـ حسن مات. ظلّ يحتسي الويسكي كلّ يوم، من الصباح حتّى آخر الليل، فمات!

ترحّمت على حسن الذي مات في الميدان الذي أحبّ، وخاض معاركه دون انقطاع منذ أيّامي الأولى في العمارة.

وكنّا نقف في أوّل العتمة التي تعتّقت هناك بعد أن استولت على المدخل. ولم أجد بُدّاً من أن أسأل عن "جابر"، الرجل الذي كان يجلس طوال الوقت على بدّالة الهاتف القديمة، يوزّع مكالمات العمارة في الإرسال والتلقي، ويسترق السّمع إلى بعضها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. فقال الرّجل الذي تسلّم عمله بعد حبسي وترحيلي مُكرهاً:

ـ جابر أيضاً مات. كانت له زوجة صغيرة وجميلة أحبت رجلاً آخر، صغيراً ووسيماً، فتركت زوجها المسكين وحيداً، فمات الرجل من شدّة القهر والوحدة.

لم أجد سوى أن أترحّم على جابر، وأن أتذكّر دماثته غير المنسجمة مع وجه شديد القسوةِ وملامح بالغة الحدّة. بيد أن وجه زوجته الرائق كان أكثر حضوراً. فقد ظلّ جمالها يفرض علينا، نحن سكّان العمارة الذين لم نكن لنلتقي إلاّ للنميمة، أن نعقد مقارنة بينها وبين الملامح القاسية لجابر، ونتخيّل الظُّلم الفادح الذي يصيبها هناك، حين تهجع على سريرها وتتهيّأ له آخر النهار!

سألتُ عن "أبو زاهر"، صاحب السوبر ماركت الذي يقع عند

مدخل العمارة، والذي تبدّت لي أحوال بضاعته من خلف الزجاج باهتة وقديمة، تثير الأسى في النّفس ولا تشبه ما كانت عليه في زمني، فسمعتُ الرجل يقول:

ـ أبو زاهر مات. كان يُجري عمليّة مفتوحة في القلب، فمات فيها!

ثمّ تذكّرتُ "أميرة"، المرأة التي ودّعت جمال صباها الذي لا شكّ فيه، لكنها كانت تستعيده بسهولة وهي تُحدِّق في البورتريه الذي رسمه لها "يوسف فرنسيس" عندما كانت في مصر، بعد أن أذهله جمالها، كما قالت، وانتزعت شهادة من أختها السمينة الجالسة على يمينها، فسألتُ عنها.

قال الحارس:

ـ أميرة، يا حرام، مرضت بالسرطان. في أيامها الأخيرة تحوّل بياض وجهها إلى لون أسود، وتقلّص حجمها لتصبح في حجم طفلة، ولكنها سرعان ما ماتت.

نسيتُ أن أترحّم على أميرة أمام الرّجل، لكنني تذكرتُ أن شقيقتها التي كانت تقيم معها في الفترة الأخيرة، والتي نسيتُ اسمها، وإن كنتُ أذكر أن جمالها لم يكن من النوع الذي يغوي يوسف فرنسيس على رسمه، فقد تُقلِب المعايير الجماليّة لإناثه اللواتي يجلسن بشعورهن المتماوجة مثل حوريات الجنّة. وما زلتُ أذكر أن تلك الأخت، على عكس أميرة، كانت بالغة القِصَر، بالغة البدانة، بالغة الفظاظة والصوت الجهير، وفيها قبحٌ خفيف، وليست لها أية ملامح من أميرة التي نسيتُ أن أترحّم عليها، مثلما نسيت اسم اختها:

ـ تقصد ليلى!؟

قال الرجل الذي يقف قبالتي مستفسراً، فأجبت وكأنني التقط درّة ضاعت مني:

ـ نعم.. نعم، كان اسمها ليلى!

توقّف الرجل قليلاً ثم قال:

ـ ربما تكون ليلى هي الأخرى قد ماتت، فقد خَرَجَتْ من هنا ولم تعُد!

وعندما قرأ الحارس السؤال في عينيّ أضاف:

ـ لقد استيقظتْ ليلى ذات صباح فاكتشفت أن سيارتها "الفولكس فاجن" قد سُرقت. وبعد يومين جاءها هاتف قيل لها فيه أن السيّارة في البقاع. حدّدوا لها المكان بدقّة، والمبلغ المطلوب دفعه لتشترى السيّارة.

لم أندهش لأن شخصاً يدفع مالاً يشتري به سيارته المسروقة، فتلك المسألة كانت شائعة منذ وقت طويل. لكنني كنت أفكّر في أن سيارة "فولكس فاجن" صغيرة وقديمة ومخلخلة هي التي أودت بليلى إلى التهلكة.

وعندما استنفدتْ ذاكرتي كلّ ما لديها، ولم أجد أسماء أخرى أسأل عنها، كان لا بُد لي من طرح السؤال الذي جئت من أجله:

ـ قل لي، من يسكن الشقة رقم 2 في الطابق السّابع؟!

أجاب الرجل على سؤالي بسؤال:

ـ هل تقصد شقّة.. (فلان)؟!

كان اسمي يسقط في تلك اللحظة على لسانه بسهولة، كأنني ما زلت أسكن تلك الشّقة التي تطلّ على شجرة الأرز الوحيدة في المدينة.

لكنني، رغم دهشتي، اكتفيت بهزّ رأسي، تأكيداً ضمنياً على أنني أعرف الشّخص صاحب الاسم!

أجاب الرجل:

ـ هي سيِّدة فلسطينيّة عجوز، وحيدة. فبعد عامين من خروجه مع السُّفُن التي غادرت بيروت إلى تونس، اضطر صاحب العمارة إلى تأجير البيت كشقّة مفروشة، فكان من نصيب تلك السيِّدة التي جلست على مقعده؛ نامت على سريره؛ وفي كثيرمن الأوقات كنت أراها وهي تمسح

الغبار عن صورته المُعلّقة على الحائط، وعن الكتب المتراكمة التي كانت تستولي على جدران البيت.

ثم أضاف بصوتٍ لا أدري لماذا حرص على أن يكون خفيضاً:

ـ أحياناً كنت أجدها مستغرقة في القراءة وهي تبكي. وعندما تلحظني، كانت تمسح دموعها وهي تقول: هذه الكتب تحكي عن فلسطين!

قلت له بلهجة بدت آمرة:

ـ لا تقل لي إن السيّدة هي الأخرى.. ماتت!؟

حدّق إليّ دون أن يجيب، فأضفتُ قائلاً إن لديّ رغبة في أن تفتح لي السيِّدة العجوز الباب لأطلّ من شرفتها على شجرة الأرز المزروعة في حديقة القصر المجاور. لكنني صحتُ مُكرراً:

ـ رجاءً.. لا تقل لي إنها ماتت!

هزّ الرجل رأسه بأسى، وكأنه يعتذر وهو يقول:

ـ ولكنها للأسف، ماتت!

ثم قال دون شرح طويل:

ـ استفقدناها بعد ثلاثة أيّام من موتها، كسرنا باب الشّقة فوجدناها ميِّتة، دون أن ننتبه إلى ساعتها التي حلّت في غفلة منّا.

غير أنه أضاف، مبدياً تعاطفه مع رغبتي:

ـ ولكن، إذا كنت ترغب في دخول الشقة لتطلّ من شرفتها، فلا بأس.. لا بأس. سوف أفتح لك الباب.. فلديّ المفتاح.

كنت أتأرجح بين رغبتي القديمة في الدخول، وأخرى شرعت تذوي في داخلي.

حدّقتُ في العتمة التي اشتدت، لتطرد مزيداً من الضوء وتتسلّق قلبي وجدران مدخل العمارة. لكنني حسمتُ الأمر، وبهزّة من رأسي، أشرتُ له بالموافقة.

سلّمت إرادتي للرجل ومضيت خلفه.

ركبنا في المصعد الذي ازدادت عتمته، فبدا لي حينئذٍ أنه بات أكثر وهناً وتلكؤاً في الوصول.

فتح الرجل باب الشّقة بمفتاحي القديم.

ولجنا باباً يخبيء صمتاً وهواء حامضاً سكن البيت والحيطان. مررنا من جانب رفوف كتبٍ غابت عنها الألفة وحلّ الغُبار، وصوفة عهدتُها بنيّة داكنة فأضحت تحمل لوناً باهتاً. ثمّ لمحتُ مسماراً وحيداً على الجدار، في زاوية طالما احتلتها صورتي التي غابت عنها الآن.

توجهتُ نحو الشُّرفة.

تطلّعتُ باتجاه القصر المنيف.

فوجئت بأن ورود الحديقة لم تكن هناك.

وفي المكان الذي كانت تنهض فيه شجرة الأرز لتُظلِّل الذاكرة، بدا الفراغ مريعاً، فلم يكن ثمّة شجرة تُشبه طائر الرُّخ.

سألت الرجل:

ـ منذ متى قطعوا شجرة الأرز التي كانت هناك.. في الحديقة؟!

أجاب بذهول واستهجان للسؤال:

ـ لم تكن هناك، في أيّ يومٍ من الأيام، شجرة أرزٍ في المكان.. أبداً لم تكن!!

عدتُ والرّجل من حيث جئنا.

أمام العمارة، سلّمتُ عليه شاكراً. ودعته ومضيت وأنا أتساءل في سرّي عن المكان الذي رحلت إليه شجرة الأرز.

وعندما التفتُّ نحو الرجل، للمرّة الأخيرة، رأيته وهو يُشيّعني بعينين متسائلتين.

توقفتُ،

التفتُّ إليه،

ثمّ طرحتُ عليه السؤال الأخير:

ـ قلّ لي، ما اسم ذلك الرجل الذي كان يسكن الشقّة التي شغلتها من بعده العجوز الفلسطينيّة قبل أن تموت؟

قل لي،

أعتقد أنني قد نسيت اسمه!؟

كنت أسمع من خلفي اسمي يتردد على لسانه، وكأنه يهتف بي، يستحثني على الوقوف.

لكنني مضيتُ مُسرعاً، مخلفاً ورائي تلك الظلمة التي تتسلّق قلبي والجدران.. وتستوطن مدخل العمارة التي فجعني ما آلت إليه أحوالها!

الفهرس

للمؤلف

ـ المنفى يا حبيبتي، (قصص)، اتحاد الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين ـ وزارة الإعلام ـ بغداد 1976.

ـ طريق إلى البحر، (رواية)، دار ابن رشد، بيروت 1980.

(طبعة ثانية للكتابين: دائرة الثقافة ـ م.ت.ف. ودار الثقافة الجديدة ـ القاهرة 1990).

ـ ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية: غسان كنفاني، اميل حبيبي، جبرا إبراهيم جبرا (دراسة نقديّة)، دائرة الإعلام والثقافة ـ م.ت.ف. والمؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ـ بيروت 1981. (طبعة ثانية: دار الأسوار، عكا ـ فلسطين 1985).

ـ رائحة الصيف، (رواية)، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت 1993.

ـ منازل القلب: كتاب رام الله (سيرة)، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت 1997.

(ترجم إلى الألمانيّة وصدر عن دار نشر دوناتا كنزلباخ ـ برلين 2004).

(ترجم إلى الإنجليزيّة وصدر عن دار نشر إنترلنك ـ الولايات المتحدة الأميركيّة وبريطانيا 2007).

ـ الهديّة لم تصل بعد (كتاب مشترك عن ناجي العلي، إشراف وتحرير ومُشاركة)، دار الكرمل، عمّان ـ الأردن 1997.

ـ مرايا السُّحب (قصّة للأطفال)، مركز أوغاريت الثقافي ، رام الله، 2004.

ـ قوس قزح، (قصّة للأطفال)، مركز أوغاريت الثقافي، رام الله، 2005.

ـ عصفور الشمس (رواية)، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت 2006.

ـ سيرة الظِّل: ـ عن آخر هو أنت (نصوص)، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت 2008.

ديك بيروت
يؤذّن في الظّهيرة

Beirut's Cock Crows at Midday
Farouk Wadi

جـــذور عميقة، وخيوط لا مرئية كثيرة، وأحلام ومصائر متقاطعة، تسري في عروق هذا الإبـــداع الجديد للكاتب الفلسطيني فاروق وادي، المُقلّ، الـــذي أدهشنا دائما في كلّ ما كتب، بدءًا من مجموعته القصصية: المنفى يا حبيبتي، وروايته: طريق إلى البحر، مرورا بكتابه النقدي: ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، وصولا إلى سيرته الأخّاذة: منازل القلب، وروايتيه: رائحة الصيف وعصفور الشمس، وسواها من الكتابات.

لـــم ننتظر شيئا، نحن الأصدقاء، أكثر مما انتظرنا أن يفاجئنا فاروق، بنص أدبي جديد، هـــو المحتشد بأفكار لامعة كثيـــرة لروايات وحكايات انتهى زمـــن زهوها لكنها ظلت زاهية، كلما بهتَ ذلك الزمان في أعيننا أعادت له هذه الحكايات ألقه من جديد.

وأخيرا، ولدت: ديك بيروت يؤذن في الظهيرة، في لغتها الأنيقة الدافئة، وعوالمها الغنيّة الواسعة: بشرا وتفاصيل، ومكانا، هو: بيروت، بيروت العصيّة، بيروت الأوسع من نفسها، المتراميـــة في كل من عبرها أو أقام فيها، بيروت المسافرة في كل من سكنها ويسكنها، الساكنة في كل من فارقها.

تتضافـــر حكايات: ديك بيـــروت... في افتراقها! مُشكلّة روايـــة مـــن نوع مختلف لبيروت وبشرهـــا في أزمنة الحرب؛ عبر بنـــاء فني متماسك، رغم قسوة حالات تفتت الشخوص واستحالة لقائهم. هنا لا تلتقي شخصيات الحكايات، كما لا يلتقي الناس في الحرب إلا بصورة خاطفة، لكنها شخصيات المكان بكل ما يحمله من تشابك وتناقض، كما لو أن الكتابة، هنا، هي الصورة الأبلغ للمدينة وحروبها، والاستجابة المخلصة لعالم مصاب بالحب وبشهوة الحياة وممزق بهما!

أمام شجرة الأرْز الوحيدة، التي يتكرر حضورها، شاهدة وشهيدة، مظللة الذاكرة والمكان، يستعيد فاروق وادي جمالا ملعونا بطموح كماله، وأنانية تفرُده!

مكتبة كل شيء
e-mail: info@kul-shee.com
www.kul-shee.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم - www.nwf.com